تفسير سورة يس

هى ثلاث وثمانون آية وهى مكية . قال القرطبى : بالإجماع إلا أن فرقة قالت : ﴿**ونكتب ما قدّموا وآثارهم**﴾ نزلت فى بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ ، وسيأتى بيان ذلك. وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : سورة يس نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله . وأخرج الدارمى والترمذى ومحمد بن نصر ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ لكلّ شىء قلبا ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرّات » : قال الترمذى بعد إخراجه : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن ، وفى إسناده هارون أبو محمد ، وهو شيخ مجهول ، وفى الباب عن أبى بكر، ولا يصح لضعف إسناده(١). وأخرج البزار من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إنّ لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس » ثم قال بعد إخراجه : لا نعلم رواه إلا زيد عن حميد: يعنى زيد بن الخباب عن حميد المكى مولى آل علقمة . وأخرج الدارمى وأبو يعلى والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له فى تلك الليلة » (٢) قال ابن كثير : إسناده جيد (٣). وأخرج ابن حبان والضياء عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له»(٤) وإسناده فى الصحيح ابن حبان هكذا : حدّثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف ، حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد الكوبى ، حدثنا أبى ، حدثنا زياد بن خيثمة، حدثنا محمد بن جحادة عن الحسن عن جندب بن عبد الله قال : قام رسول الله ﷺ . . . فذكره .

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه ومحمد بن نصر وابن حبان والطبرانى والحاكم، والبيهقى فى الشعب عن معقل بن يسار ، أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها عبد يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ما تقدّم من ذنبه ، فاقرؤوها على

---

(١) الدارمى ٢/٤٥٦ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٧) والبيهقى فى الشعب (٢٢٣٣) .

(٢) الدارمى ٢/٤٥٧ وأبو يعلى (٦٢٢٤) والطبرانى فى الصغير ١/١٤٩ والبيهقى فى الشعب (٢٢٣٦) وفى إسناد أبى يعلى ، هشام بن زياد وهو متروك . تقريب التهذيب ٢/٣١٨/٧٩ . وفى إسناد الطبرانى قال الهيثمى فى المجمع : ٧/ ١٠٠ : « فيه أغلب بن تميم وهو ضعيف ، وإسناد البيهقى رجاله موثقون . . والحسن لم يسمع من أبى هريرة » .

(٣) ابن كثير ٥/٥٩٨ وقد أخذه من طريق أبى يعلى السابق .

(٤) ابن حبان (٢٥٦٥) .

موتاكم » [١] وقد ذكر له أحمد إسنادين : أحدهما فيه مجهول ، والآخر ذكر فيه عن أبى عثمان وقال : وليس بالنهدى عن أبيه عن معقل . وأخرج سعيد بن منصور والبيهقى عن حسان بن عطية : أن رسول الله ﷺ قال: « من قرأ يس فكأنما قرأ القرآن عشر مرّات »[٢] . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والخطيب والبيهقى عن أبى بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ : «سورة يس تدعى فى التوراة : المعممة ، تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة ، تكابد عنه بلوى الدنيا والآخرة ، وتدفع عنه أهاويل الآخرة ، وتدعى : الدافعة والقاضية وتدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له كل حاجة ، من قرأها عدلت عشرين حجة ، ومن سمعها عدلت له ألف دينار فى سبيل الله ، من كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف بركة وألف رحمة ونزعت عنه كل غلّ وداء » [٣] قال البيهقى : تفرّد به عبد الرحمن بن أبى بكر الجدعانى عن سليمان بن رافع الجندى، وهو منكر قلت : وهذا الحديث هو الذى تقدمت الإشارة من الترمذى إلى ضعف إسناده ، ولا يبعد أن يكون موضوعا ، فهذه الألفاظ كلها منكرة بعيدة من كلام من أوتى جوامع الكلم ، وقد ذكره الثعلبى من حديث عائشة ، وذكره الخطيب من حديث أنس ، وذكر نحوه الخطيب من حديث علىّ بأخصر منه . وأخرج البزار عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ فى سورة يس « لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » وإسناده هكذا: قال : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ فذكره . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من داوم على قراءة يس كل ليلة ثم مات مات شهيدا » . وأخرج الدارمى عن ابن عباس قال : من قرأ يس حين يصبح أعطى يسر يومه حتى يمسى ، ومن قرأها فى صدر ليلته أعطى يسر ليلته حتى يصبح .

بسم اللّه الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨)

(١) أحمد ٥/٢٦ وأبو داود فى الجنائز (٣١٢١) وابن ماجه فى الجنائز (١٤٤٨) وابن حبان (٢٩٩١) والطبرانى ٢٠/٢١٩ (٥١٠) والحاكم ١/٥٦٥ وقال : « أوقفه يحيى بن سعيد ورفعه ابن المبارك » ووافقه الذهبى والبيهقى فى الشعب (٢٢٣٠) . وقال الحافظ فى التلخيص الحبير ٢/١٠٤ : « أعله ابن القطان بالاضطراب وبالوقف وبجهالة حال أبى عثمان وأبيه ، ونقل أبو بكر بن العربى عن الدارقطنى أنه قال :« هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن ولا يصح فى الباب حديث » .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢٣٢) . وفيه إسماعيل بن عياش . قال الحافظ فى التقريب ١/٧٣ (٥٤١) : «صدوق فى روايته عن أهل بلده ، مخلط فى غيرهم » .

(٣) البيهقى فى الشعب (٢٢٣٧) والخطيب ٢/٣٨٧، ٣٨٨ وقال: «وفى إسناده غير واحد من المجهولين».

وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون (٩) وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (١٠) إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم (١١) إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين (١٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **يس** ﴾ قرأ الجمهور بسكون النون ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص وقالون وورش بإدغام النون في الواو الذى بعدها ، وقرأ عيسى بن عمر بفتح النون ، وقرأ ابن عباس وابن أبى إسحاق ونصر بن عاصم بكسرها، فالفتح على البناء أو على أنه مفعول فعل مقدر تقديره : اتل يس ، والكسر على البناء أيضا كجير. وقيل : الفتح والكسر للفرار من التقاء الساكنين. وأما وجه قراءة الجمهور بالسكون للنون فلكونها مسرودة على نمط التعديد فلا حظ لها من الإعراب. وقرأ هارون الأعور ومحمد بن السميقع والكلبى بضم النون على البناء كمنذ وحيث وقط، وقيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى هذه يس، ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث.

واختلف فى معنى هذه اللفظة : فقيل: معناها: يا رجل ، أو يا إنسان . قال ابن الأنبارى: الوقف على يس حسن لمن قال هو افتتاح للسورة ، ومن قال معناه : يا رجل ، لم يقف عليه . وقال سعيد بن جبير وغيره : هو اسم من أسماء محمد ﷺ دليله ﴿ **إنك لمن المرسلين** ﴾ ومنه قول السعد الحميرى :

يانفس لا تمحضى بالنصح جاهدة ... على المودة إلا آل يـــاسين

ومنه قوله : ﴿ سلام على إل ياسين ﴾ [الصافات : ١٣٠] أى على آل محمد ، وسيأتى فى الصافات ما المراد بآل يس. قال الواحدى قال ابن عباس والمفسرون : يريد يا إنسان : يعنى محمدا ﷺ : وقال أبو بكر الوراق : معناه : يا سيد البشر . وقال مالك : هو اسم من أسماء الله تعالى ، روى ذلك عنه أشهب . وحكى أبو عبد الرحمن السلمى عن جعفر الصادق أن معناه : يا سيد . وقال كعب : هو قسم أقسم الله به ، ورجح الزجاج أن معناه: يا محمد . واختلفوا هل هو عربىّ أو غير عربىّ ؟ فقال سعيد بن جبير وعكرمة : حبشى . وقال الكلبى : سريانى تكلمت به العرب فصار من لغتهم . وقال الشعبى : هو بلغة طيئ . وقال الحسن : هو بلغة كلب . وقد تقدم فى طه وفى مفتتح سورة البقرة ما يغنى عن التطويل هاهنا. ﴿ **والقرآن الحكيم** ﴾ بالجرّ على أنه مقسم به ابتداء . وقيل : هو معطوف على يس على تقدير كونه مجرورا بإضمار القسم . قال النقاش : لم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة فى كتابه إلا لمحمد ﷺ تعظيما له وتمجيدا ، والحكيم المحكم الذى لا يتناقض ولا يتخالف ، أو الحكيم قائله ، وجواب القسم : ﴿ **إنك لمن المرسلين** ﴾ وهذا ردّ على من أنكر رسالته من الكفار بقولهم : ﴿ لست مرسلا ﴾ [الرعد : ٤٣] ، وقوله : ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ خبر آخر لإنّ ، أى إنك على

صراط مستقيم ، والصراط المستقيم : الطريق القيم الموصل إلى المطلوب . قال الزجاج : على طريقة الأنبياء الذين تقدّموك، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال ﴿**تنزيل العزيز الرحيم**﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر برفع «تنزيل» على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى هو تنزيل، ويجوز أن يكون خبرًا لقوله: يس إن جعل اسما للسورة ، وقرأ الباقون بالنصب على المصدرية ، أى نزلّ الله ذلك تنزيل العزيز الرحيم . والمعنى : أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم . وقيل : المعنى : إنك يا محمد تنزيل العزيز الرحيم ، والأول أولى . وقيل : هو منصوب على المدح على قراءة من قرأ بالنصب ، وعبر سبحانه عن المنزل بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس التنزيل ، وقرأ أبو حيوة والترمذى وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة : « تنزيل » بالجرّ على النعت للقرآن أو البدل منه .

واللام فى : ﴿ **لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم** ﴾ يجوز أن تتعلق بـ ﴿ **تنزيل** ﴾ ، أو بفعل مضمر يدلّ عليه ﴿ **من المرسلين** ﴾ أى أرسلناك لتنذر ، و « ما » فى : ﴿ **ما أنذر آباؤهم** ﴾ هى النافية ، أى لم ينذر آباؤهم ، ويجوز أن تكون موصولة أو موصوفة ، أى لتنذر قوما الذى أنذره آباؤهم ، أو لتنذرهم عذابا أنذره آباؤهم ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى إنذار آبائهم ، وعلى القول بأنها نافية يكون المعنى : ما أنذر آباؤهم برسول من أنفسهم ، ويجوز أن يراد: ما أنذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة ، وقوله : ﴿ **فهم غافلون** ﴾ متعلق بنفى الإنذار على الوجه الأوّل ، أى لم ينذر آباؤهم فهم بسبب ذلك غافلون ، وعلى الوجوه الآخرة متعلق بقوله : ﴿**لتنذر** ﴾ أى فهم غافلون عما أنذرنا به آباءهم ، وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفى ، وهو الظاهر من النظم لترتيب ﴿ **فهم غافلون** ﴾ على ما قبله ، واللام فى قوله : ﴿ **لقد حقّ القول على أكثرهم** ﴾ هى الموطئة للقسم ، أى والله لقد حق القول على أكثرهم ، ومعنى ﴿**حق** ﴾ : ثبت ووجب القول ، أى العذاب على أكثرهم ، أى أكثر أهل مكة أو أكثر الكفار على الإطلاق أو أكثر كفار العرب ، وهم من مات على الكفر وأصرّ عليه طول حياته فيتفرّع قوله: ﴿**فهم لا يؤمنون** ﴾ على ما قبله بهذا الاعتبار ، أى لأن الله سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر والموت عليه ، وقيل : المراد بالقول المذكور هنا: هو قوله سبحانه : ﴿فالحقّ والحقّ أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك ﴾ [ص : ٨٤ ، ٨٥] .

وجملة : ﴿ **إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا** ﴾ تقرير لما قبلها مثلت حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿ **فهى** ﴾ أى الأغلال منتهية ﴿ **إلى الأذقان** ﴾ فلا يقدرون عند ذلك على الالتفات ولا يتمكنون من عطفها، وهو معنى قوله: ﴿**فهم مقمحون**﴾ أى رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم. قال الفراء والزجاج : المقمح : الغاضّ بصره بعد رفع رأسه ، ومعنى الإقماح : رفع الرأس وغض البصر ، يقال : أقمح البعير رأسه وقمح : إذا رفع رأسه ولم يشرب الماء. قال الأزهرى: أراد الله أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال إلى أذقانهم ورؤوسهم صعداء، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إياها . وقال قتادة : معنى مقمحون : مغلولون ، والأوّل أولى ،

ومنه قول الشاعر :

ونحن على جوانبها قعود نغضّ الطرف كالإبل القماح

قال الزجاج : قيل للكانونين : شهرا قماح ؛ لأن الإبل إذا وردت الماء رفعت رؤوسها لشدة البرد ، وأنشد قول أبى زيد الهذلى :

فتى ، ما ابن الأغرّ إذا شتونا وحب الزاد فى شهرى قماح

قال أبو عبيدة : قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب . وقال أبو عبيدة أيضا : هو مثل ضربه الله لهم فى امتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول ، كما يقال : فلان حمار ، أى لا يبصر الهدى ، وكما قال الشاعر :

لهم عن الرشد أغلال وأقياد

وقال الفراء : هذا ضرب مثل ، أى حبسناهم عن الإنفاق فى سبيل الله ، وهو كقوله : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ [الإسراء : ٢٩] . وبه قال الضحاك . وقيل : الآية إشارة إلى ما يفعل بقوم فى النار من وضع الأغلال فى أعناقهم كما قال تعالى : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم ﴾ [غافر: ٧١] . وقرأ ابن عباس : « إنا جعلنا فى أيمانهم أغلالا » قال الزجاج: أى فى أيديهم . قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف . قال: وفى الكلام حذف على قراءة الجماعة، التقدير : إنا جعلنا فى أعناقهم وفى أيديهم أغلالا فهى إلى الأذقان ، فلفظ «هى» كناية عن الأيدى لا عن الأعناق ، والعرب تحذف مثل هذا ، ونظيره ﴿سرابيل تقيكم الحرّ﴾ [النحل : ٨١] وسرابيل تقيكم البرد لأن ما وقى من الحرّ وقى من البرد؛ لأن الغلّ إذا كان فى العنق فلا بدّ أن يكون فى اليد ، ولاسيما وقد قال الله : ﴿ فهى إلى الأذقان ﴾ فقد علم أنه يراد به الأيدى فهم مقمحون، أى: رافعو رؤوسهم لايستطيعون الإطراق؛ لأن من غلت يداه إلى ذقنه ارتفع رأسه . وروى عن ابن عباس أنه قرأ : « إنا جعلنا فى أيديهم أغلالا » وعن ابن مسعود أنه قرأ : « إنا جعلنا فى أيمانهم أغلالا » كما روى سابقا من قراءة ابن عباس . ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدًا** ﴾ أى منعناهم عن الإيمان بموانع ، فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان ، كالمضروب أمامه وخلفه بالأسداد ، والسدّ بضم السين وفتحها لغتان ، ومن هذا المعنى فى الآية قول الشاعر :

ومن الحوادث لا أبالك أننى ضربت علىّ الأرض بالأسداد

لا أهتـدى فيها لموضع تلعة بين العـذيب وبين أرض مراد

﴿ **فأغشيناهم** ﴾ أى غطينا أبصارهم ﴿ **فهم** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **لا يبصرون** ﴾ أى لا يقدرون على إبصار شىء. قال الفراء : فألبسنا أبصارهم غشوة، أى عمى فهم لا يبصرون سبيل الهدى ، وكذا قال قتادة : إن المعنى : لا يبصرون الهدى . وقال السدّى : لا يبصرون محمدًا حين

ائتمروا على قتله . وقال الضحاك : ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا** ﴾ أى الدنيا ﴿**ومن خلفهم سدًا** ﴾ أى الآخرة ﴿ **فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ أى عموا عن البعث وعموا عن قبول الشرائع فى الدنيا. وقيل: ما بين أيديهم: الآخرة ، وما خلفهم : الدنيا ، قرأ الجمهور بالغين المعجمة ، أى غطينا أبصارهم ، فهو على حذف مضاف. وقرأ ابن عباس وعمر بن عبد العزيز والحسن ويحيى بن يعمر وأبو رجاء وعكرمة بالعين المهملة من العشا وهو ضعف البصر ومنه : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ [الزخرف : ٣٦] ﴿**وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾ أى إنذارك إياهم وعدمه سواء . قال الزجاج : أى من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار ، إنما ينفع الإنذار من ذكر فى قوله: ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب** ﴾ أى اتبع القرآن وخشى الله فى الدنيا . وجملة : ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ مستأنفة مبينة لما قبلها من الاستواء ، أو فى محل نصب على الحال أو بدل ، و﴿ **بالغيب** ﴾ فى محل نصب على الحال من الفاعل أو المفعول ﴿ **فبشره بمغفرة وأجر كريم** ﴾ أى بشر هذا الذى اتبع الذكر ، وخشى الرحمن بالغيب بمغفرة عظيمة وأجر كريم ، أى حسن وهو الجنة .

ثم أخبر سبحانه بإحيائه الموتى فقال : ﴿ **إنا نحن نحيى الموتى** ﴾ أى نبعثهم بعد الموت . وقال الحسن والضحاك : أى نحييهم بالإيمان بعد الجهل ، والأوّل أولى . ثم توعدهم بكتب آثارهم فقال : ﴿ **ونكتب ما قدموا** ﴾ أى أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿ **وآثارهم** ﴾ أى ما أبقوه من الحسنات التى لا ينقطع نفعها بعد الموت . كمن سنّ سنة حسنة أو نحو ذلك ، أو السيئات التى تبقى بعد موت فاعلها، كمن سن سنة سيئة . قال مجاهد وابن زيد : ونظيره قوله: ﴿علمت نفس ما قدّمت وأخرت ﴾ [الانفطار : ٥] ، وقوله: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [القيامة : ١٣] . وقيل : المراد بالآية : آثار المشائين إلى المساجد ، وبه قال جماعة من الصحابة والتابعين . قال النحاس: وهو أولى ما قيل فى الآية لأنها نزلت فى ذلك . ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لابخصوص سببها ، وعمومها يقتضى كتب جميع آثار الخير والشرّ ، ومن الخير: تعليم العلم وتصنيفه ، والوقف على القرب وعمارة المساجد والقناطر . ومن الشرّ : ابتداع المظالم وإحداث ما يضرّ بالناس ويقتدى به أهل الجور ويعملون عليه من مكس أو غيره ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **وكلّ شىء أحصيناه فى إمام مبين** ﴾ أى وكل شىء من أعمال العباد وغيرها كائنا ما كان، فى إمام مبين ، أى كتاب مقتدى به موضح لكل شىء . قال مجاهد وقتادة وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ ، وقالت فرقة : أراد صحائف الأعمال . قرأ الجمهور : ﴿**ونكتب** ﴾ على البناء للفاعل . وقرأ زرّ ومسروق على البناء للمفعول . وقرأ الجمهور : ﴿ **كل شىء أحصيناه** ﴾ بنصب « كل » على الاشتغال . وقرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود وابن عباس . وقوله : ﴿ **يس** ﴾ قالا : يامحمد . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يس** ﴾ قال : يا إنسان . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن والضحاك

وعكرمة مثله . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى المسجد فيجهر بالقراءة ، حتى تأذى به ناس من قريش ، حتى قاموا ليأخذوه ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا هم عمى لا يبصرون ، فجاؤوا إلى النبى ﷺ ، فقالوا : ننشدك الله والرحم يا محمد ، قال : ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبى ﷺ فيهم قرابة ، فدعا النبى ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم ، فنزلت : ﴿ **يس . والقرآن الحكيم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ قال : « فلم يؤمن من ذلك النفر أحد » وفى الباب روايات فى سبب نزول ذلك ، هذه الرواية أحسنها وأقربها إلى الصحة .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الأغلال : ما بين الصدر إلى الذقن ﴿ **فهم مقمحون** ﴾ كما تقمح الدابة باللجام. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سدا**﴾ الآية قال: كانوا يمرّون على النبى ﷺ فلا يرونه. وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : اجتمعت قريش بباب النبى ﷺ ينتظرون خروجه ليؤذوه، فشقّ ذلك عليه ، فأتاه جبريل بسورة يس وأمره بالخروج عليهم ، فأخذ كفا من تراب وخرج وهو يقرؤها ويذرّ التراب على رؤوسهم ، فما رأوه حتى جاز ، فجعل أحدهم يلمس رأسه فيجد التراب ، وجاء بعضهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا ننتظر محمدا ، فقال : لقد رأيته داخلا المسجد ، قال : قوموا فقد سحركم .

وأخرج عبد الرزاق والترمذى وحسنه ، والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخدرى قال: كان بنو سلمة فى ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد : فأنزل الله : ﴿ **إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم** ﴾ فدعاهم رسول الله ﷺ ، فقال : إنه يكتب آثاركم، ثم قرأ عليهم الآية: فتركوا » [(١)] . وأخرج الفريابى ، وأحمد فى الزهد وعبد بن حميد وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس نحوه[(٢)] . وفى صحيح مسلم وغيره من حديث جابر قال: إن بنى سلمة أرادوا أن يبيعوا ديارهم ويتحوّلوا قريبا من المسجد، فقال لهم رسول الله ﷺ : « يا بنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم » [(٣)] .

﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ**

---

(١) عبد الرزاق (١٩٨٢) والترمذى فى التفسير (٣٢٢٦) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٢٢/ ١٠٠ وصححه الحاكم ٢/٤٢٨، ٤٢٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢٦٣٠) .

(٢) ابن ماجه فى المساجد (٧٨٥) وفى الزوائد : « هذا موقوف فيه سماك بن حرب مضطرب الحديث » وابن جرير٢٢/ ١٠٠ والطبرانى (١٢٣١٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٠ : «فيه عبد الله بن محمد بن سعيد ابن أبى مريم وهو ضعيف ».

(٣) أحمد ٣/٣٣٢ ومسلم فى المساجد (٦٦٥ / ٢٨٠) وابن حبان (٢٠٤٠) وابن جرير ٢٢ / ١٠٠ وأبو نعيم فى الحلية ٣/ ١٠٠ والبيهقى فى الشعب (٢٦٢٩) .

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ(١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ(٢٧)﴾ .

قوله : ﴿ **واضرب لهم مثلا أصحاب القرية** ﴾ قد تقدّم الكلام على نظير هذا فى سورة البقرة والنمل ، والمعنى : اضرب لأجلهم مثلا ، أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلا ، أى مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية، فعلى الأوّل لما قال تعالى: ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ [يس: ٣] ، وقال ﴿ لتنذر قوما ﴾ [يس : ٦] قال : قل لهم : ما أنا بدعا من الرسل، فإن قبلى بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون، وأنذروهم بما أنذرتكم، وذكروا التوحيد ، وخوّفوا بالقيامة ، وبشروا بنعيم دار الإقامة، وعلى الثانى لما قال : إن الإنذار لا ينفع من أضله الله، وكتب عليه أنه لا يؤمن، قال للنبى ﷺ : اضرب لنفسك ولقومك مثلا، أى، مثل لهم عند نفسك مثلا بأصحاب القرية حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا، وصبر الرسل على الإيذاء ، وأنت جئت إليهم واحدا، وقومك أكثر من قوم الثلاثة ، فإنهم جاؤوا إلى أهل القرية ، وأنت بعثتك إلى الناس كافة . والمعنى : واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ، أى اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية، فترك المثل وأقيم أصحاب القرية مقامه فى الإعراب . وقيل : لاحاجة إلى الإضمار ، بل المعنى : اجعل أصحاب القرية لهم مثلا على أن يكون ﴿ **مثلا** ﴾ و ﴿**أصحاب القرية**﴾ مفعولين لاضرب ، أو يكون أصحاب القرية بدلا من مثلا ، و قد قدّمنا الكلام على المفعول الأوّل من هذين المفعولين هل هو مثلا أو أصحاب القرية . وقد قيل: إن ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله : ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ [التحريم : ١٠] . ويستعمل أخرى فى ذكر حالة غريبة ، وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيره لها كما فى قوله : ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ [إبراهيم : ٤٥] أى بينا لكم أحوالا بديعة غريبة ، هى فى الغرابة كالأمثال ؛ فقوله سبحانه هنا: ﴿**واضرب لهم مثلا** ﴾ يصح اعتبار الأمرين فيه. قال القرطبى : هـذه القرية هى أنطاكية فى قول جميع المفسرين .

وقوله : ﴿ **إذ جاءها المرسلون** ﴾ بدل اشتمال من أصحاب القرية ، والمرسلون : هم أصحاب عيسى ، بعثهم إلى أهل أنطاكية للدّعاء إلى الله ، فأضاف الله سبحانه الإرسال إلى نفسه فى قوله : ﴿ **إذ أرسلنا إليهم اثنين** ﴾ لأن عيسى أرسلهم بأمر الله سبحانه ، ويجوز أن يكون الله أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء ، فكذبوهما فى الرسالة ، وقيل : ضربوهما وسجنوهما . قيل : واسم الاثنين يوحنا وشمعون . وقيل : أسماء الثلاثة : صادق ومصدوق وشلوم . قاله ابن جرير وغيره. وقيل : سمعان ويحيى وبولس ﴿ **فعزّزنا بثالث** ﴾ قرأ الجمهور بالتشديد، وقرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الزاى . قال الجوهرى : « فعزّزنا » يخفف ويشدّد ، أى قوينا وشدّدنا فالقراءتان على هذا بمعنى . وقيل : التخفيف بمعنى : غلبنا وقهرنا، ومنه : ﴿وعزّنى فى الخطاب ﴾ [ص : ٢٣] والتشديد بمعنى : قوّينا وكثرنا . وقيل : وهذا الثالث هو شمعون ، وقيل : غيره ﴿ **فقالوا إنا إليكم مرسلون** ﴾ أى قال الثلاثة جميعا ، وجاؤوا بكلامهم هذا مؤكدا لسبق التكذيب للاثنين ، والتكذيب لهما تكذيب للثالث ، لأنهم أرسلوا جميعا بشىء واحد ، وهو الدعاء إلى الله عزّ وجل ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ؛ كأنه قيل : ما قال هؤلاء الرّسل بعد التعزيز لهم بثالث ؟ وكذلك جملة : ﴿ **قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فما قال لهم أهل أنطاكية ؟ فقيل : قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، أى مشاركون لنا فى البشرية ، فليس لكم مزية علينا تختصون بها . ثم صرّحوا بجحود إنزال الكتب السماوية فقالوا : ﴿ **وما أنزل الرّحمن من شىء** ﴾ **مما تدّعونه أنتم** ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم ﴿ **إن أنتم إلا تكذبون** ﴾ أى ما أنتم إلا تكذبون فى دعوى ما تدّعون من ذلك ، فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيدا بليغا لتكرر الإنكار من أهل أنطاكية ، وهو قولهم : ﴿ **ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون** ﴾ فأكدوا الجواب بالقسم الذى يفهم من قولهم : ربنا يعلم ، وبإنّ وباللام .

﴿ **وما علينا إلا البلاغ المبين** ﴾ أى ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور والوضوح وليس علينا غير ذلك ، وهذه الجملة مستأنفة كالتى قبلها ، وكذلك جملة : ﴿**قالوا إنا تطيرنا بكم** ﴾ فإنها مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر ، أى إنا تشاءمنا بكم ، لم تجدوا جوابا تجيبون به على الرسل إلا هذا الجواب المبنىّ على الجهل المنبئ عن الغباوة العظيمة ، وعدم وجود حجة تدفعون الرسل بها . قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين . قيل : إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين ، ثم رجعوا إلى التجبر والتكبر لما ضاقت صدورهم وأعيتهم العلل فقالوا : ﴿ **لئن لم تنتهوا لنرجمنكم** ﴾ أى لئن لم تتركوا هذه الدعوى وتعرضوا عن هذه المقالة لنرجمنكم بالحجارة ﴿ **وليمسنكم منا عذاب أليم** ﴾ أى شديد فظيع . قال الفرّاء : عامة ما فى القرآن من الرجم المراد به القتل . وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة . قيل : ومعنى العذاب الأليم : القتل . وقيل : الشتم . وقيل : هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع خاص ، وهذا هو الظاهر .

ثم أجاب عليهم الرسل دفعا لما زعموه من التطير بهم فقالوا : ﴿ **طائركم معكم** ﴾ أى شؤمكم معكم من جهة أنفسكم، لازم فى أعناقكم ، وليس هو من شؤمنا . قال الفراء : ﴿**طائركم معكم**﴾ أى رزقكم وعملكم، وبه قال قتادة. قرأ الجمهور: ﴿ **طائركم** ﴾ اسم فاعل ، أى ما طار لكم من الخير والشرّ ، وقرأ الحسن : « اطيركم » أى تطيركم . ﴿ **أئن ذكرتم** ﴾ . قرأ الجمهور من السبعة وغيرهم بهمزة استفهام بعدها إن الشرطية على الخلاف بينهم فى التسهيل والتحقيق ، وإدخال ألف بين الهمزتين وعدمه . وقرأ أبو جعفر وزرّ بن حبيش وابن السميقع وطلحة بهمزتين مفتوحتين . وقرأ الأعمش وعيسى بن عمر والحسن « أين » بفتح الهمزة وسكون الياء على صيغة الظرف . واختلف سيبويه ويونس إذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجاب ؟ فذهب سيبويه إلى أنه يجاب الاستفهام ، وذهب يونس إلى أنه يجاب الشرط ، وعلى القولين فالجواب هنا محذوف ، أى أئن ذكرتم فطائركم معكم لدلالة ما تقدّم عليه . وقرأ الماجشون : «أن ذكرتم » بهمزة مفتوحة ، أى لأن ذكرتم . ثم أضربوا عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سببا للشؤم فقالوا : ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ أى ليس الأمر كذلك ، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى المعصية . قال قتادة : مسرفون فى تطيركم . وقال يحيى بن سلام : مسرفون فى كفركم. وقال ابن بحر : السرف هنا : الفساد ، والإسراف فى الأصل : مجاوزة الحد فى مخالفة الحق .

﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى** ﴾ هو حبيب بن موسى النجار، وكان نجارا. وقيل : إسكافا . وقيل: قصارا. وقال مجاهد ومقاتل : هو حبيب بن إسرائيل النجار ، وكان ينحت الأصنام ، . وقال قتادة : كان يعبد الله فى غار، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى ، وجملة : ﴿ **قال ياقوم اتبعوا المرسلين** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر : كأنه قيل : فماذا قال لهم عند مجيئه ؟ فقيل : قال: يا قوم اتبعوا المرسلين ، هؤلاء الذين أرسلوا إليكم فإنهم جاؤوا بحق . ثم أكد ذلك وكرّره فقال : ﴿ **اتبعوا من لا يسألكم أجرا** ﴾ أى لا يسألونكم أجرا على ما جاؤوكم به من الهدى ﴿ **وهم مهتدون** ﴾ يعنى : الرسل . ثم أبرز الكلام فى معرض النصيحة لنفسه ، وهو يريد مناصحة قومه فقال : ﴿ **وما لى لا أعبد الذى فطرنى** ﴾ أى أىّ مانع من جانبى يمنعنى من عبادة الذى خلقنى ؟ ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه بل أرادهم بكلامه فقال : ﴿**وإليه ترجعون** ﴾ ولم يقل : إليه أرجع ، وفيه مبالغة فى التهديد .

ثم عاد إلى المساق الأوّل لقصد التأكيد ومزيد الإيضاح فقال : ﴿ **أأتخذ من دونه آلهة** ﴾ فجعل الإنكار متوجها إلى نفسه ، وهم المرادون به ، أى لا أتخذ من دون الله آلهة وأعبدها ، وأترك عبادة من يستحق العبادة وهو الذى فطرنى . ثم بين حال هذه الأصنام التى يعبدونها من دون الله سبحانه ؛ إنكارا عليهم . وبيانا لضلال عقولهم وقصور إدراكهم فقال : ﴿ **إن يردن الرحمن بضرّ لا تغن عنى شفاعتهم شيئًا** ﴾ أى شيئًا من النفع كائنا ما كان ﴿ **ولا ينقذون** ﴾ من ذلك الضر الذى أرادنى الرحمن به ، وهذه الجملة صفة لآلهة ، أو مستأنفة لبيان حالها فى عدم

النفع والدفع ، وقوله : ﴿ لا تغن ﴾ جواب الشرط ، وقرأ طلحة بن مصرّف : « إن يردنى » بفتح الياء ، قال : ﴿ إنى إذا لفى ضلال مبين ﴾ أى إنى إذا اتخذت من دونه آلهة لفى ضلال مبين واضح ، وهذا تعريض بهم كما سبق ، والضلال : الخسران. ثم صرّح بإيمانه تصريحا لا يبقى بعده شكّ فقال : ﴿ إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ خاطب بهذا الكلام المرسلين . قال المفسرون : أراد القوم قتله . فأقبل هو على المرسلين ، فقال : إنى آمنت بربكم أيها الرسل فاسمعون ، أى اسمعوا إيمانى واشهدوا لى به . وقيل : إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلبا فى الدين وتشدّدا فى الحقّ ، فلما قال هذا القول وصرّح بالإيمان وثبوا عليه فقتلوه . وقيل : وطؤوه بأرجلهم. وقيل : حرقوه . وقيل : حفروا له حفيرة وألقوه فيها . وقيل : إنهم لم يقتلوه بل رفعه الله إلى السماء فهو فى الجنة ، وبه قال الحسن. وقيل : نشروه بالمنشار .

﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ أى : قيل له ذلك تكريما بدخولها بعد قتله كما هى سنة الله فى شهداء عباده . وعلى قول من قال : إنه رفع إلى السماء ولم يقتل ، يكون المعنى : أنهم لما أرادوا قتله نجاه الله من القتل ، وقيل له : ادخل الجنة فلما دخلها وشاهدها ﴿ قال يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أى فماذا قال بعد أن قيل له: ادخل الجنة فدخلها ؟ فقيل: قال: ﴿ يا ليت قومى ﴾ إلخ، « وما » فى ﴿بما غفر لى ﴾ هى المصدرية ، أى بغفران ربى . وقيل : هى الموصولة ، أى بالذى غفر لى ربى والعائد محذوف، أى غفره لى ربى ، واستضعف هذا لأنه لا معنى لتمنيه أن يعلم قومه بذنوبه المغفورة، وليس المراد : إلا التمنى منه بأنه يعلم قومه بغفران ربه له. وقال الفراء : إنها استفهامية بمعنى التعجب، كأنه قال : بأىّ شىء غفر لى ربى. قال الكسائى : لو صح هذا لقال « بم » من غير ألف. ويجاب عنه بأنه قد ورد فى لغة العرب إثباتها وإن كان مكسورا بالنسبة إلى حذفها ، ومنه قول الشاعر :

على ما قام يشتمنى لئيم ... كخنزير تمرغ فى دمان

وفى معنى تمنيه قولان : أحدهما : أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته إرغاما لهم. وقيل: إنه تمنى أن يعلموا بذلك ليؤمنوا مثل إيمانه ، فيصيروا إلى مثل حاله.

وقد أخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ﴾ قال: هى أنطاكية . وأخرج ابن أبى حاتم عن بريدة مثله . وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : كان بين موسى بن عمران وبين عيسى ابن مريم ألف سنة وتسعمائة سنة ، ولم يكن بينهما فترة ، وأنه أرسل بينهما ألف نبىّ من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم ، وكان بين ميلاد عيسى والنبىّ ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث فى أوّلها ثلاثة أنبياء وهو قوله : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ والذى

عزّز به شمعون ، وكان من الحواريين ، وكانت الفترة التى لم يبعث الله فيها رسولا أربعمائة سنة وأربع وثلاثون سنة [١] . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **طائركم معكم** ﴾ قال : شؤمكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿**وجاء من أقصى المدينة رجل**﴾ قال: هو حبيب النجار[٢] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه من وجه آخر، قال : اسم صاحب يس : حبيب ، وكان الجذام قد أسرع فيه . وأخرج الحاكم عن ابن مسعود قال : لما قال صاحب يس : ﴿ **يا قوم اتبعوا المرسلين** ﴾ خنقوه ليموت فالتفت إلى الأنبياء فقال : ﴿ **إنى آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ أى فاشهدوا لى .

﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)** ﴾ .

لما وقع ما وقع منهم مع حبيب النجار غضب الله له وعجل لهم النقمة وأهلكهم بالصيحة ، ومعنى، ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده** ﴾ أى على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له ، أو من بعد رفع الله له إلى السموات على الاختلاف السابق ﴿ **من جند من السماء** ﴾ لإهلاكهم وللانتقام منهم ، أى لم نحتج إلى إرسال جنود من السماء لإهلاكهم كما وقع ذلك للنبىّ ﷺ يوم بدر من إرسال الملائكة لنصرته وحرب أعدائه ﴿ **وما كنا منزلين** ﴾ أى وما صحّ فى قضائنا وحكمتنا أن ننزل لإهلاكهم جنداً لسبق قضائنا وقدرنا بأن إهلاكهم بالصيحة لابإنزال الجند ، وقال قتادة ومجاهد والحسن : أى ما أنزلنا عليهم من رسالة من السماء ولا نبىّ بعد قتله . وروى عن الحسن أنه قال : هم الملائكة النازلون بالوحى على الأنبياء ، والظاهر أن معنى النظم

(١) ابن سعد ١/ ٥٣ وتهذيب ابن عساكر ١/ ٢٢ .

(٢) ابن جرير ٢٢/ ١٠٢ .

القرآنى تحقير شأنهم وتصغير أمرهم ، أى ليسوا بأحقاء بأن ننزل لإهلاكهم جندا من السماء ، أهلكناهم بصيحة واحدة كما يفيده قوله : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة** ﴾ أى إن كانت العقوبة أو النقمة أو الأخذة إلا صيحة واحدة صاح بها جبريل فأهلكهم . قال المفسرون : أخذ جبريل بعضادتى باب المدينة ، ثم صاح بهم صيحة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حس كالنار إذا طفئت ، وهو معنى قوله : ﴿ **فإذا هم خامدون** ﴾ أى قوم خامدون ميتون ، شبههم بالنار إذا طفئت ؛ لأن الحياة كالنار الساطعة ، والموت كخمودها . قرأ الجمهور : ﴿ **صيحة** ﴾ بالنصب على أن كان ناقصة . واسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق كما قدمنا . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج ومعاذ القارئ برفعها على أن كان تامة ، أى وقع وحدث ، وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فى قوله : ﴿ **إن كانت** ﴾ قال أبو حاتم : فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال : « إن كان إلا صيحة » وقدر الزجاج هذه القراءة بقوله : إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة، وقدّرها غيره : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وقرأ عبد الله بن مسعود: «إن كانت إلا زقية واحدة » والزقية: الصيحة ، قال النحاس : وهذا مخالف للمصحف ، وأيضا فإن اللغة المعروفة: زقا يزقو إذا صاح . ومنه المثل : « أثقل من الزواقى » فكان يجب على هذا أن تكون زقوة ، ويجاب عنه بما ذكره الجوهرى قال : الزقو والزقى مصدر وقد زقا الصدا يزقو زقا ، أى صاح ، وكل صائح زاق ، والزقية : الصيحة .

﴿ **يا حسرة على العباد** ﴾ قرأ الجمهور : بنصب ﴿ **حسرة** ﴾ على أنها منادى منكر ، كأنه نادى الحسرة وقال لها : هذا أوانك فاحضرى . وقيل : إنها منصوبة على المصدرية ، والمنادى محذوف ، والتقدير : ياهؤلاء تحسروا حسرة . وقرأ قتادة وأبىّ فى رواية عنه بضم حسرة على النداء . قال الفراء فى توجيه هذه القراءة: إن الاختيار النصب وإنها لو رفعت النكرة لكان صوابا، واستشهد بأشياء نقلها عن العرب منها أنه سمع من العرب: يا مهتمّ بأمرنا لا تهتم ، وأنشد :

يا دار غيرها البلى تغييرا

قال النحاس : وفى هذا إبطال باب النداء أو أكثره . قال : وتقدير ما ذكره : يا أيتها المهتم لا تهتم بأمرنا، وتقدير البيت: يا أيتها الدار . وحقيقة الحسرة: أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسرا ، قال ابن جرير : المعنى: يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندّما وتلهفا فى استهزائهم برسل الله ، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس وعلى بن الحسين : « ياحسرة العباد » على الإضافة ، ورويت هذه القراءة عن أبىّ . وقال الضحاك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل . وقيل : من قول الرجل الذى جاء من أقصى المدينة . وقيل : إن القائل : يا حسرة على العباد ، هم الكفار المكذبون ، والعباد : الرسل ؛ وذلك أنهم لما رأوا العذاب تحسروا على قتلهم وتمنوا الإيمان قاله أبو العالية ومجاهد . وقيل : إن التحسر عليهم هو من الله عزّ وجلّ بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه ، وقرأ ابن هرمز ومسلم بن جندب وعكرمة وأبو الزناد : « ياحسره »

بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف ، وقرئ : « يا حسرتا » كما قرئ بذلك فى سورة الزمر ، وجملة : ﴿ **ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾ مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل والاستهزاء بهم ، وأن ذلك هو سبب التحسر عليهم .

ثم عجب سبحانه من حالهم حيث لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية فقال : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون** ﴾ أى ألم يعلموا كثرة من أهلكنا قبلهم من القرون التى أهلكناها من الأمم الخالية ، وجملة ﴿ **أنهم إليهم لايرجعون**﴾ بدل من كم أهلكنا على المعنى . قال سيبويه : أنّ بدل من كم وهى الخبرية ، فذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام ، والمعنى : ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون . وقال الفراء : « كم » فى موضع نصب من وجهين : أحدهما بـ ﴿ **يروا** ﴾ واستشهد على هذا بأنه فى قراءة ابن مسعود : « ألم يروا من أهلكنا » ، والوجه الآخر : أن تكون « كم » فى موضع نصب بـ ﴿ **أهلكنا** ﴾ . قال النحاس : القول الأوّل محال، لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها ، لأنها استفهام ومحال أن يدخل الاستفهام فى حيز ما قبله ، وكذا حكمها إذا كانت خبرا ، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا فجعل أنهم بدلا من كم ، وقد ردّ ذلك المبرد أشدّ ردّ ﴿ **وإن كلّ لما جميع لدينا محضرون** ﴾ أى محضرون لدينا يوم القيامة للجزاء . قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿ **لَّمَّا** ﴾ بتشديدها ، وقرأ الباقون بتخفيفها . قال الفراء : من شدد جعل **لما** بمعنى إلا ، وإن بمعنى ما ، أى ما كلّ إلا جميع، لدينا محضرون ، ومعنى ﴿ **جميع** ﴾ مجموعون ، فهو فعيل بمعنى مفعول، ولدينا ظرف له ، وأما على قراءة التخفيف فإن هى المخففة من الثقيلة ، وما بعدها مرفوع بالابتداء ، وتنوين ﴿ **كل** ﴾ عوض عن المضاف إليه وما بعده الخبر ، واللام هى الفارقة بين المخففة والنافية . قال أبو عبيدة: وما على هذه القراءة زائدة،والتقدير عنده: وإن كل لجميع.وقيل: معنى ﴿**محضرون**﴾ معذبون ، والأولى أنه على معناه الحقيقى من الإحضار للحساب .

ثم ذكر سبحانه البرهان على التوحيد والحشر مع تعداد النعم وتذكيرها فقال: ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة** ﴾ فآية خبر مقدّم وتنكيرها للتفخيم ولهم صفتها، أو متعلقة بآية لأنها بمعنى علامة، والأرض مبتدأ، ويجوز أن تكون ﴿ **آية** ﴾ مبتدأ لكونها قد تخصصت بالصفة ، وما بعدها الخبر. قرأ أهل المدينة : « الميتة » بالتشديد وخففها الباقون ، وجملة : ﴿**أحييناها**﴾ مستأنفة مبينة لكيفية كونها آية . وقيل : هى صفة للأرض فنبههم الله بهذا على إحياء الموتى وذكرهم نعمه وكمال قدرته ، فإنه سبحانه أحيا الأرض بالنبات ، وأخرج منها الحبوب التى يأكلونها ويتغذون بها ، وهو معنى قوله : ﴿ **وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون** ﴾ وهو ما يقتاتونه من الحبوب ، وتقديم ﴿**منه** ﴾ للدلالة على أن الحبّ معظم ما يؤكل وأكثر ما يقوم به المعاش . ﴿ **وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب** ﴾ أى جعلنا فى الأرض جنات من أنواع النخل والعنب، وخصصهما بالذكر، لأنهما أعلى الثمار وأنفعها للعباد ﴿ **وفجرنا فيها من العيون** ﴾ أى فجرنا فى الأرض بعضا من العيون ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، أو المفعول العيون ، ومن مزيدة على رأى من

جوّز زيادتها فى الإثبات وهو الأخفش ومن وافقه ، والمراد بالعيون : عيون الماء . قرأ الجمهور : ﴿ **فجرّنا** ﴾ بالتشديد ، وقرأ جناح بن حبيش بالتخفيف ، والفجر والتفجير: كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى ، واللام فى : ﴿ **ليأكلوا من ثمره** ﴾ متعلق بجعلنا ، والضمير فى ﴿ **من ثمره** ﴾ يعود إلى المذكور من الجنات والنخيل . وقيل : هو راجع إلى ماء العيون لأن الثمر منه قاله الجرجانى . قرأ الجمهور: ﴿ **ثمره** ﴾ بفتح الثاء والميم ، وقرأ حمزة والكسائى بضمها ، وقرأ الأعمش بضم الثاء وإسكان الميم ، وقد تقدّم الكلام فى هذا فى الأنعام ، وقوله : ﴿ **وما عملته أيديهم** ﴾ معطوف على ﴿ **ثمره** ﴾ أى ليأكلوا من ثمره ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما ، وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن « ما » موصولة . وقيل : هى نافية ، والمعنى : لم يعملوه، بل العامل له هو الله ، أى وجدوها معمولة ولا صنع لهم فيها ، وهو قول الضحاك ومقاتل . قرأ الجمهور : ﴿ **عملته** ﴾ ، وقرأ الكوفيون « عملت » بحذف الضمير، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفلا يشكرون** ﴾ للتقريع والتوبيخ لهم لعدم شكرهم للنعم .

وجملة : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها** ﴾ مستأنفة مسوقة لتنزيه سبحانه عما وقع منهم من ترك الشكر لنعمه المذكورة والتعجب من إخلالهم بذلك ، وقد تقدّم الكلام مستوفى فى معنى سبحان ، وهو فى تقدير الأمر للعباد بأن ينزهوه عما لا يليق به ، والأزواج : الأنواع والأصناف ، لأن كل صنف مختلف الألوان والطعوم والأشكال ، و ﴿ **مما تنبت الأرض** ﴾ بيان للأزواج ، والمراد : كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها ﴿ **ومن أنفسهم** ﴾ أى خلق الأزواج من أنفسهم ، وهم الذكور والإناث ﴿ **ومما لا يعلمون** ﴾ من أصناف خلقه فى البرّ والبحر والسماء والأرض . ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار** ﴾ الكلام فى هذا كما قدّمنا فى قوله: ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها** ﴾ والمعنى : أن ذلك علامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب إلهيته ، والسلخ : الكشط والنزع ، يقال : سلخه الله من بدنه ، ثم يستعمل بمعنى الإخراج، فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء ، وهو استعارة بليغة ﴿**فإذا هم مظلمون** ﴾ أى داخلون فى الظلام مفاجأة وبغتة ، يقال : أظلمنا أى دخلنا فى ظلام الليل ، وأظهرنا دخلنا فى وقت الظهر ، وكذلك أصبحنا وأمسينا ، وقيل : « منه » بمعنى عنه ، والمعنى : نسلخ عنه ضياء النهار . قال الفراء : يرمى بالنهار على الليل فيأتى بالظلمة ، وذلك أن الأصل هى الظلمة والنهار داخل عليه ، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل ، أى كشط وأزيل فتظهر الظلمة .

﴿ **والشمس تجرى لمستقرّ لها** ﴾ يحتمل أن تكون الواو للعطف على الليل ، والتقدير : وآية لهم الشمس ، ويجوز أن تكون الواو ابتدائية : والشمس مبتدأ ، وما بعدها الخبر ، ويكون الكلام مستأنفا مشتملا على ذكر آية مستقلة . قيل : وفى الكلام حذف ، والتقدير : تجرى لمجرى مستقرّ لها ، فتكون اللام للعلة ، أى لأجل مستقرّ لها ، وقيل : اللام بمعنى إلى وقد

قرئ بذلك . قيل : المراد بالمستقرّ : يوم القيامة ، فعنده تستقرّ ولا يبقى لها حركة ، وقيل : مستقرها هو أبعد ما تنتهى إليه ولا تجاوزه ، وقيل : نهاية ارتفاعها فى الصيف ونهاية هبوطها فى الشتاء ، وقيل : مستقرها تحت العرش ؛ لأنها تذهب إلى هنالك فتسجد ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وهذا هو الرّاجح. وقال الحسن : إن للشمس فى السنة ثلاثمائة مطلعا تنزل فى كل يوم مطلعا ثم لا تنزل إلى الحول ، فهى تجرى فى تلك المنازل ، وهو مستقرّها ، وقيل : غير ذلك . وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وزين العابدين وابنه الباقر والصادق بن الباقر : « لا مستقرّ لها » بلا التى لنفى الجنس ، وبناء مستقرّ على الفتح . وقرأ ابن أبى عبلة: « لا مستقرّ »، بلا التى بمعنى ليس، ومستقرّ اسمها ، ولها خبرها ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى جرى الشمس ، أى ذلك الجرى ﴿ **تقدير العزيز** ﴾ أى الغالب القاهر ﴿ **العليم** ﴾ أى المحيط علمه بكل شىء ، ويحتمل أن تكون الإشارة راجعة إلى المستقرّ أى ذلك المستقرّ : تقدير الله .

﴿ **والقمر قدّرناه منازل** ﴾ . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو برفع القمر على الابتداء . وقرأ الباقون بالنصب على الاشتغال ، وانتصاب ﴿ **منازل** ﴾ على أنه مفعول ثان ، لأن « قدرنا » بمعنى : صيرنا ، ويجوز أن يكون منتصبا على الحال، أى قدّرنا سيره حال كونه ذا منازل ، ويجوز أن يكون منتصبا على الظرفية ، أى فى منازل . واختار أبو عبيد النصب فى القمر؛ لأن قبله فعلا وهو ﴿ **نسلخ** ﴾ ، وبعده فعلا وهو « قدرنا » قال النحاس : أهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال ، منهم الفراء قال : الرفع أعجب إلىّ قال : وإنما كان الرفع عندهم أولى لأنه معطوف على ما قبله ، ومعناه: وآية لهم القمر. قال أبو حاتم : الرفع أولى لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء ، والمنازل هى الثمانية والعشرون التى ينزل القمر فى كل ليلة فى واحد منها وهى معروفة وسيأتى ذكرها ، فإذا صار القمر فى آخرها عاد إلى أوّلها، فيقطع الفلك فى ثمان وعشرين ليلة ، ثم يستتر ليلتين ، ثم يطلع هلالا ، فيعود فى قطع تلك المنازل من الفلك ﴿ **حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾ قال الزجاج : العرجون هو عود العذق الذى فيه الشماريخ ، وهو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف ، أى سار فى منازله ، فإذا كان فى آخرها دق واستقوس وصغر حتى صار كالعرجون القديم ، وعلى هذا فالنون زائدة . قال قتادة : وهو العذق اليابس المنحنى من النخلة. قال ثعلب : العرجون: الذى يبقى فى النخلة إذا قطعت، والقديم : البالى . وقال الخليل : العرجون أصل العذق وهو أصفر عريض ، يشبه به الهلال إذا انحنى ، وكذا قال الجوهرى : إنه أصل العذق الذى يعوج ويقطع منه الشماريخ ، فيبقى على النخل يابسا ، وعَرَجْتُه : ضربته بالعرجون ، وعلى هذا فالنون أصلية . قرأ الجمهور : ﴿العرجون ﴾ بضم العين والجيم: وقرأ سليمان التيمى بكسر العين وفتح الجيم ، وهما لغتان ، والقديم : العتيق.

﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر** ﴾ الشمس مرفوعة بالابتداء ، لأنه لا يجوز أن

تعمل لا فى المعرفة ، أى لا يصح ولا يمكن للشمس أن تدرك القمر فى سرعة السير وتنزل فى المنزل الذى فيه القمر ؛ لأن لكل واحد منهما سلطانا على انفراده ، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر ، فيذهب سلطانه إلى أن يأذن الله بالقيامة، فتطلع الشمس من مغربها ، وقال الضحاك : معناه إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء ، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء . وقال مجاهد : أى لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر. وقال الحسن : إنهما لا يجتمعان فى السماء ليلة الهلال خاصة ، وكذا قال يحيى بن سلام . وقيل : معناه : إذا اجتمعا فى السماء كان أحدهما بين يدى الآخر فى منزل لا يشتركان فيه . وقيل : القمر فى سماء الدنيا ، والشمس فى السماء الرابعة ، ذكره النحاس والمهدوى . قال النحاس : وأحسن ما قيل فى معناه وأبينه : أن سير القمر سير سريع والشمس لا تدركه فى السير . وأما قوله : ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ [القيامة : ٩]. فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه فى الأنعام، ويأتى فى سورة القيامة أيضا ، وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا وقيام الساعة ﴿ **ولا الليل سابق النهار** ﴾ أى يسبقه فيفوته ، ولكن يعاقبه . ويجىء كل واحد منهما وقته ولا يسبق صاحبه ، وقيل : المراد من الليل والنهار : آيتاهما ، وهما الشمس والقمر ، فيكون عكس قوله : ﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر** ﴾ أى ولا القمر سابق الشمس ، وإيراد السبق مكان الإدراك لسرعة سير القمر ﴿ **وكلّ فى فلك يسبحون** ﴾ التنوين فى كلّ عوض عن المضاف إليه ، وكل واحد منهما، والفلك: هو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة،والخلاف فى كون السماء مبسوطة أو مستديرة معروف، والسبح: السير بانبساط وسهولة، والجمع فى قوله: ﴿ **يسبحون** ﴾ باعتبار اختلاف مطالعهما ، فكأنهما متعدّدان بتعدّدها أو المراد : الشمس والقمر والكواكب .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده** ﴾ الآية يقول: ما كابدناهم بالجموع ، أى الأمر أيسر علينا من ذلك . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يا حسرة على العباد** ﴾ يقول : يا ويلا للعباد . وأخرج ابن أبى حاتم ، عنه فى قوله : ﴿ **يا حسرة على العباد** ﴾ قال : الندامة على العباد الذين ﴿ **ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾ يقول : الندامة عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وما عملته أيديهم** ﴾ قال : وجدوه معمولا لم تعمله أيديهم ، يعنى الفرات ودجلة ونهر بلخ وأشباهها ﴿ **أفلا يشكرون** ﴾ لهذا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى ذرّ قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **والشمس تجرى لمستقرّ لها** ﴾ قال : « مستقرّها تحت العرش » [1] ، وفى لفظ للبخارى وغيره من حديثه قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس فقال : « يا أبا ذرّ أتدرى أين تغرب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : «إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله: ﴿**والشمس**

---

(١) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٣) ، ومسلم فى الإيمان (١٥٩/ ٢٥١) .

تجرى لمستقرّ لها ﴾ »[١]. وفى لفظ من حديثه أيضا عند أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم قال: «يا أبا ذرّ ، أتدرى أين تذهب هذه ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى ربها فتستأذن فى الرجوع فيأذن لها، وكأنها قد قيل لها: اطلعى من حيث جئت، فتطلع من مغربها ». ثم قرأ : ﴿ ذلك مستقرّ لها ﴾ وذلك قراءة عبد الله[٢] . وأخرج الترمذى والنسائى وغيرهما من قول ابن عمر نحوه .

وأخرج الخطيب فى كتاب النجوم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ الآية قال: هى ثمانية وعشرون منزلا ينزلها القمر فى كلّ شهر : أربعة عشر منها شامية ، وأربعة عشر منها يمانية ، أولها الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والدبرة والصرفة والعوّاء والسماك . وهو آخر الشامية ، والغفر والزبانا والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية ومقدّم الدلو ومؤخر الدلو والحوت، وهو آخر اليمانية، فإذا سار هذه الثمانية وعشرين منزلا ﴿ عاد كالعرجون القديم ﴾ كما كان فى أوّل الشهر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿كالعرجون القديم ﴾ يعنى : أصل العذق العتيق .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) ﴾ .

---

(١) أحمد ٥/ ١٥٢ والبخارى فى التفسير (٤٨٠٢) ومسلم فى الإيمان (١٥٩/ ٢٥٠) والترمذى فى التفسير (٣٢٢٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) أحمد ٥/ ١٤٥ والترمذى فى الفتن (٢١٨٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤٥٠) .

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعا آخر مما امتنّ به على عباده من النعم فقال : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم فى الفلك المشحون** ﴾ أى دلالة وعلامة ، وقيل : معنى ﴿ **آية** ﴾ هنا : العبرة ، وقيل : النعمة ، وقيل : النذارة .

وقد اختلف فى معنى ﴿ **أنا حملنا ذرياتهم** ﴾ إلى من يرجع الضمير ، لأن الضمير الأوّل وهو قوله : ﴿ **وآية لهم** ﴾ لأهل مكة ، أو لكفار العرب ، أو للكفار على الإطلاق الكائنين فى عصر محمد ﷺ ، فقيل : الضمير يرجع إلى القرون الماضية ، والمعنى : أن الله حمل ذرّية القرون الماضية فى الفلك المشحون ، فالضميران مختلفان . وهذا حكاه النحاس عن علىّ بن سليمان الأخفش . وقيل : الضميران لكفار مكة ونحوهم . والمعنى : أن الله حمل ذرّياتهم من أولادهم وضعفائهم على الفلك ، فامتنّ الله عليهم بذلك ، أى إنهم يحملونهم معهم فى السفن إذا سافروا ، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها . وقيل : الذرّية : الآباء والأجداد ، والفلك : هو سفينة نوح ، أى إن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم فى سفينة نوح . قال الواحدى : والذرّية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد . قال أبو عثمان: وسمى الآباء ذرية، لأن منهم ذرء الأبناء. وقيل : الذرية : النطف الكائنة فى بطون النساء ، وشبه البطون بالفلك المشحون ، والراجح: القول الثانى ثم الأوّل ثم الثالث ، وأما الرابع ففى غاية البعد والنكارة . وقد تقدّم الكلام فى الذرية واشتقاقها فى سورة البقرة مستوفى ، والمشحون : المملوء الموقر، والفلك يطلق على الواحد والجمع كما تقدّم فى يونس ، وارتفاع آية على أنها خبر مقدّم ، والمبتدأ : ﴿ **أنا حملنا** ﴾ أوالعكس على ما قدّمنا وقيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ **وآية لهم** ﴾ يرجع إلى العباد المذكورين فى قوله: ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ [يس : ٣٠] لأنه قال بعد ذلك: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة ﴾ [يس:٣٣] وقال : ﴿ وآية لهم الليل ﴾ [يس : ٣٧] ثم قال : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم** ﴾ فكأنه قال : وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ، ولا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين : البعض منهم ، وبالضمير الآخر: البعض الآخر ، وهذا قول حسن .

﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ أى وخلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ما هى الموصولة . قال مجاهد وقتادة وجماعة من أهل التفسير : وهى الإبل خلقها لهم للركوب فى البرّ، مثل السفن المركوبة فى البحر، والعرب تسمى الإبل سفائن البرّ . وقيل : المعنى : وخلقنا لهم سفنا أمثال تلك السفن يركبونها ، قاله الحسن والضحاك وأبو مالك . قال النحاس : وهذا أصحّ لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس . وقيل : هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح : ﴿ **وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون** ﴾ هذا من تمام الآية التى امتنّ الله بها عليهم ، ووجه الامتنان أنه لم يغرقهم فى لجج البحار مع قدرته على ذلك ، والضمير يرجع إما إلى أصحاب الذرية، أو إلى الذرية ، أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال، والصريخ بمعنى المصرخ ، والمصرخ هو المغيث، أى فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم، وقيل: هو المنعة . ومعنى ﴿**ينقذون** ﴾: يخلصون ، يقال : أنقذه واستنقذه: إذا خلصه من مكروه ﴿ **إلا رحمة منا** ﴾ استثناء من أعمّ

العلل ، أي لا صريخ لهم ولاينقذون لشيء من الأشياء إلا رحمة منا ، كذا قال الكسائي والزجاج وغيرهما ، وقيل : هو استثناء منقطع ، أي لكن لرحمة منا . وقيل : هو منصوب على المصدرية بفعل مقدّر﴿ و ﴾ انتصاب ﴿ **متاعا** ﴾ على العطف على رحمة ، أي نمتعهم بالحياة الدنيا ﴿ **إلى حين** ﴾ وهو الموت ، قاله قتادة . وقال يحيى بن سلام : إلى القيامة .

﴿ **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم** ﴾ أي ما بين أيديكم من الآفات والنوازل فإنها محيطة بكم ، وما خلفكم منها . قال قتادة: معنى ﴿ **اتقوا ما بين أيديكم** ﴾ أي من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم ﴿ **وما خلفكم** ﴾ في الآخرة . وقال سعيد بن جبير ومجاهد : ﴿ **ما بين أيديكم** ﴾ : ما مضى من الذنوب ﴿ **وما خلفكم** ﴾ : ما بقي منها . وقيل : ﴿ **ما بين أيديكم** ﴾ : الدنيا ﴿ **وما خلفكم** ﴾ : الآخرة ، قاله سفيان . وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس . وقيل : ﴿ **ما بين أيديكم** ﴾ ما ظهر لكم ﴿ **وما خلفكم** ﴾ : **ما خفي عنكم** ، وجواب إذا محذوف ، والتقدير : إذا قيل لهم ذلك ، أعرضوا كما يدلّ عليه ﴿ **إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ أي : رجاء أن ترحموا ، أو كي ترحموا ، أو راجين أن ترحموا ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ « ما » هي النافية ، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد ، ومن الأولى مزيدة للتوكيد والثانية للتبعيض ، والمعنى : ما تأتيهم من آية دالة على نبوّة محمد ﷺ ، وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين. وظاهره يشمل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية، وجملة : ﴿ **إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ في محلّ نصب على الحال كما مرّ تقريره في غير موضع . والمراد بالإعراض: عدم الالتفات إليها ، وترك النظر الصحيح فيها : وهذه الآية متعلقة بقوله : ﴿ **يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾ أي إذا جاءتهم الرسل كذّبوا ، وإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها .

﴿ **وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله** ﴾ أي تصدّقوا على الفقراء مما أعطاكم الله ، وأنعم به عليكم من الأموال ، قال الحسن : يعني اليهود أمروا بإطعام الفقراء . وقال مقاتل : إن المؤمنين قالوا لكفار قريش : أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله من أموالكم من الحرث والأنعام كما في قوله سبحانه : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ﴾ [الأنعام : ١٣٦] فكان جوابهم ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ **قال الذين كفروا للذين آمنوا** ﴾ استهزاء بهم ، وتهكما بقولهم : ﴿**أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** ﴾ أي من لو يشاء الله رزقه ، وقد كانوا سمعوا المسلمين يقولون: إن الرزّاق هو الله، وأنه يغني من يشاء، ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين وقالوا : نحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله ، وهذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل ؛ فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه وأفقر بعضا. وأمر الغنيّ أن يطعم الفقير وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة . وقولهم ﴿ **من لو يشاء الله أطعمه** ﴾

هو وإن كان كلاما صحيحا فى نفسه ، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة اللّه . أو إنكار جواز الأمر بالاتفاق مع قدرة اللّه كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلا . وقوله : ﴿ **إن أنتم إلا فى ضلال مبين** ﴾ من تمام كلام الكفار . والمعنى : إنكم أيها المسلمون فى سؤال المال . وأمرنا بإطعام الفقراء لفى ضلال فى غاية الوضوح والظهور ، وقيل : هو من كلام الله سبحانه جوابا على هذه المقالة التى قالها الكفار . وقال القشيرى والماوردى: إن الآية نزلت فى قوم من الزنادقة. وقد كان فى كفار قريش وغيرهم من سائر العرب قوم يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع ، فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين وسناقضة لهم . وحكى نحو هذا القرطبى عن ابن عباس .

﴿**ويقولون متى هذا الوعد**﴾ الذى تعدونا به من العذاب والقيامة،والمصير إلى الجنة أو النار. ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تقولونه وتعدونا به . قالوا ذلك استهزاء منهم وسخرية بالمؤمنين . ومقصودهم إنكار ذلك بالمرّة ، ونفى تحققه وجحد وقوعه ، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله : ﴿**ما ينظرون إلا صيحة واحدة** ﴾ أى ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، وهى نفخة إسرافيل فى الصور ﴿ **تأخذهم وهم يخصمون** ﴾ أى يختصمون فى ذات بينهم فى البيع والشراء ونحوهما من أمور الدنيا، وهذه هى النفخة الأولى، وهى نفخة الصعق. وقد اختلف القراء فى ﴿**يخصمون** ﴾ فقرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد من خصم يخصم ، والمعنى : يخصم بعضهم بعضا ، المفعول محذوف . وقرأ أبو عمرو وقالون بإخفاء فتحة الخاء وتشديد الصاد ، وقرأ نافع وابن كثير وهشام كذلك إلا أنهم أخلصوا فتحة الخاء ، وقرأ الباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد . والأصل فى القراءات الثلاث يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد ، فنافع وابن كثير وهشام نقلوا فتحة التاء إلى الساكن قبلها نقلا كاملا ، وأبو عمرو وقالون اختلسا حركتها تنبيها على أن الخاء أصلها السكون، والباقون حذفوا حركتها، فالتقى ساكنان فكسروا أوّلهما . وروى عن أبى عمرو وقالون أنهما قرآ بتسكين الخاء وتشديد الصاد وهى قراءة مشكلة لاجتماع ساكنين فيها . وقرأ أبىّ : «يختصمون » على ما هو الأصل .

﴿ **فلا يستطيعون توصية** ﴾ أى لا يستطيع بعضهم أن يوصى إلى بعض بماله وما عليه ، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة والإقلاع عن المعاصى ، بل يموتون فى أسواقهم ومواضعهم ﴿ **ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ أى إلى منازلهم التى ماتوا خارجين عنها . وقيل : المعنى : لا يرجعون إلى أهلهم قولا ، وهذا إخبار عما ينزل بهم عند النفخة الأولى . ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية فقال : ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ وهى النفخة التى يبعثون بها من قبورهم ، ولهذا قال : ﴿**فإذا هم من الأجداث** ﴾ أى القبور ﴿ **إلى ربهم ينسلون** ﴾ أى يسرعون، وبين النفختين أربعون سنة . وعبر عن المستقبل بلفظ الماضى حيث قال : ﴿ **ونفخ** ﴾ تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره أهل البيان ، وجعلوا هذه الآية مثالا له ، والصور بإسكان الواو : هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، كما وردّت بذلك السنة ، وإطلاق هذا الاسم على القرن معروف فى لغة العرب ، ومنه قول الشاعر :

نحن نطحناهم غداة الغورين نطحا شديدا لا كنطح الصورين

أى القرنين . وقد مضى هذا مستوفى فى سورة الأنعام . وقال قتادة : الصور جمع صورة ، أى نفخ فى الصور الأرواح ، والأجداث جمع جدث وهو القبر . وقرئ : « الأجداف » بالفاء وهى لغة ، واللغة الفصيحة بالثاء المثلثة والنسل والنسلان : الإسراع فى السير ، يقال : نسل ينسل كضرب يضرب ، ويقال : ينسل بالضم ، ومنه قول امرئ القيس :

فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وقول الآخر :

عسلان الذيب أمسى قاربًا بـرد الـليـل عليـه فنـسل

﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ أى قالوا عند بعثهم من القبور بالنفخة : ياويلنا نادوا ويلهم كأنهم قالوا له احضر فهذا أوان حضورك، وهؤلاء القائلون هم الكفار . قال ابن الأنبارى: الوقف على ﴿ يا ويلنا ﴾ وقف حسن . ثم يبتدئ الكلام بقوله : ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول ، وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياما . قرأ الجمهور . ﴿ يا ويلنا ﴾ وقرأ ابن أبى ليلى : « يا ويلتنا » بزيادة التاء . وقرأ الجمهور : ﴿ من بعثنا ﴾ بفتح ميم « من » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو نهيك بكسر الميم على أنها حرف جرّ، ورويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب وعلى هذه القراءة تكون «من» متعلقة بالويل ، وقرأ الجمهور : ﴿ من بعثنا ﴾ . وفى قراءة أبىّ : « من أهبنا » من هب نومه : إذا انتبه ، وأنشد ثعلب على هذه القراءة :

وعاذلة هبـت بليل تلومنى ولم يعتمرنى قبل ذاك عذول

وقيل : إنهم يقولون ذلك إذا عاينوا جهنم . وقال أبو صالح : إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية ، وجملة : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ جواب عليهم من جهة الملائكة ، أو من جهة المؤمنين . وقيل : هو من كلام الكفرة يجيب به بعضهم على بعض . قال بالأوّل الفراء ، وبالثانى مجاهد . وقال قتادة : هى من قول الله سبحانه ، و« ما » في قوله : ﴿ ما وعد الرحمن ﴾ موصولة وعائدها محذوف والمعنى : هذا الذى وعده الرحمن ، وصدق فيه المرسلون قد حق عليكم ونزل بكم . ومفعولا الوعد والصدق محذوفان ، أى وعدكموه الرحمن وصدقكموه المرسلون ، والأصل وعدكم به وصدقكم فيه ، أو وعدناه الرحمن وصدقناه المرسلون على أن هذا من قول المؤمنين ، أو من قول الكفار . ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ أى ما كانت تلك النفخة المذكورة إلاصيحة واحدة صاحها إسرافيل بنفخة فى الصور ﴿ فإذا هم جميع لدينا محـضرون ﴾ أى فإذا هم مجمعون محضرون لدينا بسرعة للحساب والعقاب . ﴿ فاليوم لا تظلم نفس ﴾ من النفوس ﴿ شيئا ﴾ مما

تستحقه ، أى لا ينقص من ثواب عملها شيء من النقص ، ولا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم ﴿**ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون**﴾ أى إلا جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا ، أو إلا بما كنتمّ تعملونه ، أى بسببه ، أو فى مقابلته .

وقد أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **أنا حملنا ذرياتهم** ﴾ الآية قال : فى سفينة نوح حمل فيها من كلّ زوجين اثنين ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ قال : السفن التى فى البحر والأنهار التى يركب الناس فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبى صالح نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ قال : هى السفن جعلت من بعد سفينة نوح. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : يعنى الإبل خلقها الله كما رأيت ، فهى سفن البرّ يحملون عليها ويركبونها . ومثله عن الحسن وعكرمة وعبد الله بن شدّاد ومجاهد .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ **فلا يستطيعون توصية** ﴾ الآية قال : تقوم الساعة والناس فى أسواقهم يتبايعون ويذرعون الثياب ويحلبون اللقاح ، وفى حوائجهم ﴿ **فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن المنذر عن الزبير بن العوّام قال : إن الساعة تقوم والرجل يذرع [1] الثوب والرجل يحلب الناقة ، ثم قرأ : ﴿ **فلا يستطيعون توصية** ﴾ الآية. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » [2] . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب فى قوله : ﴿**من بعثنا من مرقدنا**﴾ قال : ينامون قبل البعث نومة .

﴿ **إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ**

---

(١) ذرع الثوب وغيره يذرعه ذرعا : قدره بالذّراع . اللسان ٨/ ٩٤ .

(٢) أحمد ٢/ ٥٣٠ والبخارى فى الفتن (٧١٢١) ومسلم فى الفتن (٢٩٥٤/ ١٤٠) .

عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) ﴾ .

لما ذكر الله سبحانه حال الكافرين أتبعه بحكاية حال عباده الصالحين ، وجعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ زيادة لحسرتهم وتكميلا لجزعهم ، وتتميما لما نزل بهم من البلاء وما شاهدوه من الشقاء ، فإذا رأوا ما أعدّه الله لهم من أنواع العذاب ، وما أعدّه لأوليائه من أنواع النعيم ، بلغ ذلك من قلوبهم مبلغا عظيما ، وزاد فى ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها . والمعنى : ﴿ **إن أصحاب الجنة** ﴾ فى ذلك ﴿ **اليوم فى شغل** ﴾ بما هم فيه من اللذات ، التى هى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، عن الاهتمام بأمر الكفار ومصيرهم إلى النار وإن كانوا من قراباتهم . والأولى عدم تخصيص الشغل بشىء معين . وقال قتادة ومجاهد : شغلهم ذلك اليوم بافتضاض العذارى . وقال وكيع : شغلهم بالسماع ، وقال ابن كيسان : بزيارة بعضهم بعضا . وقيل : شغلهم كونهم ذلك اليوم فى ضيافة الله . قرأ الكوفيون وابن عامر : ﴿ **شُغُل** ﴾ بضمتين . وقرأ الباقون بضم الشين وسكون الغين ، وهما لغتان كما قال الفراء . وقرأ مجاهد وأبو السماك بفتحتين . وقرأ النحوى وابن هبيرة بفتح الشين وسكون الغين . وقرأ الجمهور : ﴿ **فاكهون** ﴾ بالرفع على أنه خبر أن ، و ﴿ **فى شغل** ﴾ متعلق به ، أو محل نصب على الحال ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر إنّ و﴿ **فاكهون** ﴾ خبر ثان . وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرف : «فاكهين» بالنصب على أنه حال ، ﴿ **وفى شغل** ﴾ هو الخبر . وقرأ الحسن وأبو جعفر وأبو حيوة وأبو رجاء وشيبة وقتادة ومجاهد : « فكهون » قال الفراء : هما لغتان كالفاره والفره ، والحاذر والحذر . وقال الكسائى وأبو عبيدة : الفاكه : ذو الفاكهة مثل تامر ولابن ، والفكه : المتفكه والمتنعم . وقال قتادة : الفكهون : المعجبون . وقال أبو زيد : يقال رجل فكه : إذا كان طيب النفس ضحوكا . وقال مجاهد والضحاك كما قال قتادة ، وقال السدّى كما قال الكسائى .

﴿ **هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم سرورا وبهجة من أزواجهم معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك ، فالضمير وهو ﴿ **هم** ﴾ مبتدأ ﴿ **وأزواجهم** ﴾ معطوف عليه والخبر : ﴿ **متكئون** ﴾ ، ويجوز أن يكون هم تأكيدا للضمير فى ﴿ **فاكهون** ﴾ وأزواجهم معطوف على ذلك الضمير ، وارتفاع متكئون على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، و﴿ **فى ظلال** ﴾ متعلق به أو حال ، وكذا على

الأرائك . وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ **في ظلال** ﴾ هو الخبر و ﴿ **على الأرائك** ﴾ مستأنف . قرأ الجمهور : ﴿ **في ظلال** ﴾ بكسر الظاء و بالألف وهو جمع ظلّ . وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وخلف ﴿ **في ظلل** ﴾ بضم الظاء من غير ألف جمع ظلة ، وعلى القراءتين فالمراد : الفرش والستور التى تظللهم كالخيام والحجال ، والأرائك جمع أريكة، كسفائن جمع سفينة ، المراد بها : السرر التى فى الحجال . قال أحمد بن يحيى ثعلب: الأريكة لا يكون إلا سريرا فى قبة . وقال مقاتل: إن المراد بالظلال أكنان القصور.

وجملة ﴿ **لهم فيها فاكهة** ﴾ مبينة لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب ونحوها . والمراد : فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ﴿ **ولهم ما يدّعون** ﴾ « ما » هذه هى الموصولة والعائد محذوف ، أوموصوفة أو مصدرية ، و﴿ **يدّعون** ﴾ مضارع ادّعى . قال أبو عبيدة : يدّعون : يتمنون ، والعرب تقول : ادع على ما شئت. أى تمنّ ، وفلان فى خير ما يدّعى ، أى ما يتمنى. وقال الزجاج: هو من الدعاء ، أى ما يدّعونه أهل الجنة يأتيهم ، من دعوت غلامى ، فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحل . وقيل : افتعل بمعنى تفاعل ، أى ما يتداعونه كقولهم ارتموا وترامو . وقيل : المعنى : إن ادّعى منهم شيئا فهوله؛ لأن الله قد طبعهم على أن لا يدّعى أحد منهم شيئا إلا وهو يحسن ويجمل به أن يدّعيه، « وما » مبتدأ وخبرها ﴿ **لهم** ﴾ والجملة معطوفة على ما قبلها . وقرئ : « يدعون » بالتخفيف ومعناها واضح . قال ابن الأنبارى : والوقف على يدعون وقف حسن، ثم يبتدئ ﴿ **سلام** ﴾ على معنى لهم سلام ، وقيل : إن سلام هو خبر « ما » أى مسلم خالص أو ذو سلامة. وقال الزجاج: سلام مرفوع على البدل من « ما » أى ولهم أن يسلم الله عليهم، وهذا منى أهل الجنة، والأولى أن يحمل قوله : ﴿ **ولهم ما يدّعون** ﴾ على العموم ، وهذا السلام يدخل تحته دخولا أوليا ، ولا وجه لقصره على نوع خاص ، وإن كان أشرف أنواعه تحقيقا لمعنى العموم ، ورعاية لما يقتضيه النظم القرآنى . وقيل : إن سلام مرتفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى سلام يقال لهم ﴿ **قولا** ﴾ وقيل: إن سلام مبتدأ . وخبره الناصب لـ﴿ **قولا** ﴾ ، أى سلام يقال لهم قولا . وقيل : خبره من ربّ العالمين . وقيل : التقدير : سلام ، هذا على قراءة الجمهور، وقرأ أبىّ وابن مسعود وعيسى : « سلاما » بالنصب إما على المصدرية أو على الحالية بمعنى خالصا ، والسلام إما من التحية أو من السلامة . وقرأ محمد بن كعب القرظى : « سلم » كأنه قال : سلم لهم لا يتنازعون فيه. وانتصاب ﴿ **قولا** ﴾ على المصدرية بفعل محذوف ، على معنى : قال الله لهم ذلك قولا ، أو يقوله لهم قولا ، أويقال لهم قولا ﴿ **من ربّ رحيم** ﴾ أى من جهته . قيل : يرسل الله سبحانه إليهم بالسلام . وقال مقاتل : إن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كل باب يقولون : سلام عليكم يا أهل الجنة من ربّ رحيم .

﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ هو على إضمار القول مقابل ما قيل للمؤمنين أى ويقال للمجرمين : امتازوا أى انعزلوا ، من مازه غيره ، يقال : مزت الشيء من الشيء : إذا عزلته عنه

ونحيته. قال مقاتل : معناه : اعتزلوا اليوم ـ يعنى فى الآخرة ـ من الصالحين . وقال السدّى : كونوا على حدة . وقال الزجاج : انفردوا عن المؤمنين . وقال قتادة : عزلوا عن كل خير . وقال الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض ، فيمتاز اليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة . والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة . وقال داود بن الجراح : يمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فإنهم يكونون مع المجرمين .

ثم وبخهم الله سبحانه وقرعهم بقوله : ﴿ **ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان**﴾ وهذا من جملة ما يقال لهم. والعهد: الوصية ، أى ألم أوصكم وأبلغكم على ألسن رسلى أن لا تعبدوا الشيطان، أى لا تطيعوه. قال الزجاج: المعنى: ألم أتقدّم إليكم على لسان الرسل يا بنى آدم. وقال مقاتل: يعنى الذين أمروا بالاعتزال. قال الكسائى: لا للنهى . وقيل : المراد بالعهد هنا : الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم . وقيل : هو ما نصبه الله لهم من الدلائل العقلية التى فى سمواته وأرضه. وجملة: ﴿ **إنه لكم عدّو مبين** ﴾ تعليل لما قبلها من النهى عن طاعة الشيطان وقبول وسوسته ، وجملة : ﴿ **وأن اعبدونى** ﴾ عطف على ﴿ **أن لا تعبدوا** ﴾ ، وأن فى الموضعين هى المفسرة للعهد الذى فيه معنى القول ، ويجوز أن تكون مصدرية فيهما، أى لم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا ، بأن اعبدونى ، أو ألم أعهد إليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى . ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ أى عبادة الله وتوحيده . أو الإشارة إلى دين الإسلام .

ثم ذكر سبحانه عدواة الشيطان لبنى آدم فقال : ﴿ **ولقد أضل منكم جبلا كثيرا** ﴾ اللام هى الموطئة للقسم، والجملة مستأنفة للتقريع والتوبيخ، أى والله لقد أضلّ إلخ . وقرأ نافع وعاصم : ﴿**جبلا** ﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وسكون الباء ، وقرأ الباقون بضمتين مع تخفيف اللام ، وقرأ ابن أبى إسحاق والزهرى وابن هرمز بضمتين مع تشديد اللام ، وكذلك قرأ الحسن وعيسى بن عمر والنضر بن أنس ، وقرأ أبو يحيى وحماد بن سلمة والأشهب العقيلى بكسر الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام . قال النحاس : وأبينها القراءة الأولى . والدليل على ذلك أنهم قد قرؤوا جميعا : ﴿ والجبلة الأوّلين ﴾ [الشعراء : ١٨٤] بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، فيكون جبلا جمع جبلة ، واشتقاق الكل من جبل الله الخلق ، أى خلقهم ، ومعنى الآية : أن الشيطان قد أغوى خلقا كثيرا كما قال مجاهد . وقال قتادة : جموعا كثيرة ، وقال الكلبى : أمما كثيرة . قال الثعلبى : والقراءات كلها بمعنى الخلق ، وقرئ : « جيلا » بالجيم والياء التحتية . قال الضحاك : الجيل الواحد عشرة آلاف ، والكثير ما يحصيه إلا الله عزّ وجلّ ، ورويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب ، والهمزة فى قوله: ﴿**أفلم تكونوا تعقلون** ﴾ للتقريع والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام كما تقدّم فى نظائره، أى أتشاهدون آثار العقوبات ؟ أفلم تكونوا تعقلون ؟ أو أفلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم ؟

أو أفلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا ؟ قرأ الجمهور : ﴿ **أفلم تكونوا تعقلون** ﴾ بالخطاب ، وقرأ طلحة وعيسى بالغيبة .

﴿ **هذه جهنم التى كنتم توعدون** ﴾ أى ويقال لهم عند أن يدنوا من النار : هذه جهنم التى كنتم توعدون بها فى الدنيا على ألسنة الرسل ، والقائل لهم الملائكة . ثم يقولون لهم : ﴿**اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون** ﴾ أى قاسوا حرّها اليوم وادخلوها وذوقوا أنواع العذاب فيها بما كنتم تكفرون ، أى بسبب كفركم بالله فى الدنيا وطاعتكم للشيطان وعبادتكم للأوثان ، وهذا الأمر أمر تنكيل وإهانة كقوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : ٤٩] . ﴿ **واليوم نختم على أفواههم** ﴾ اليوم ظرف لما بعده ، وقرئ : « يختم » على البناء للمفعول ، والنائب الجار والمجرور بعده . قال المفسرون : إنهم ينكرون الشرك وتكذيب الرسل كما فى قولهم : ﴿والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] . فيختم الله على أفواههم ختما لا يقدرون معه على الكلام ، وفى هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم ، ثم قال : ﴿ **وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ أى تكلّمت أيديهم بما كانوا يفعلونه ، وشهدت أرجلهم عليهم بما كانوا يعملون . قرأ الجمهور : ﴿**تكلمنا وتشهد** ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف : «ولتكلمنا » ، « ولتشهد » بلام كى . وقيل: سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف . وقيل : ختم على أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم ؛ لأن شهادة غير الناطق أبلغ فى الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز . وقيل : ليعلموا أن أعضاءهم التى كانت أعوانا لهم فى معاصى الله صارت شهودا عليهم ، وجعل ما تنطق به الأيدى كلاما وإقرارا ؛ لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصى ، وجعل نطق الأرجل شهادة ؛ لأنها حاضرة عند كل معصية . وكلام الفاعل إقرار ، وكلام الحاضر شهادة ، وهذا اعتبار بالغالب ، وإلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدى مباشرة لها .

﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم** ﴾ أى أذهبنا أعينهم وجعلناها بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن . قال الكسائى : طمس يطمس ويطمس والمطموس والطميس عند أهل اللغة الذى ليس فى عينيه شق كما فى قوله : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ [البقرة : ٢٠] . مفعول المشيئة محذوف ، أى لو نشاء أن نطمس على أعينهم لطمسنا . قال السدّى والحسن : المعنى : لتركناهم عميا يتردّدون لا يبصرون طريق الهدى ، واختار هذا ابن جرير ﴿ **فاستبقوا الصراط** ﴾ معطوف على ﴿ **لطمسنا** ﴾ أى تبادروا إلى الطريق ليجوزوه ويمضوا فيه ، والصراط منصوب بنزع الخافض ، أى فاستبقوا إليه . وقال عطاء ومقاتل وقتادة : المعنى : لو نشاء لفقأنا أعينهم وأعميناهم عن غيهم . وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ، فأبصروا رشدهم ، واهتدوا وتبادروا إلى طريق الآخرة . ومعنى ﴿ **فأنى يبصرون** ﴾ أى كيف يبصرون الطريق ويحسنون سلوكه ولا أبصار لهم ؟ وقرأ عيسى بن عمر : «فاستبقوا » على صيغة الأمر ، أى فيقال لهم : استبقوا . وفى هذا تهديد لهم .

ثم كرّر لهم التهديد لهم فقال : ﴿ **ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم** ﴾ المسخ : تبديل الخلقة إلى حجر أوغيره من الجماد أو بهيمة ، والمكانة : المكان ، أى لو شئنا لبدّلنا خلقهم على المكان الذى هم فيه . قيل : والمكانة: أخص من المكان كالمقامة والمقام . قال الحسن : أى لأقعدناهم ﴿ **فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون** ﴾ أى لا يقدرون على ذهاب ولا مجيء . قال الحسن : فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعون وراءهم . وكذلك الجماد لا يتقدّم ولا يتأخر . وقيل : المعنى : لو نشاء لأهلكناهم فى مساكنهم . وقيل : لمسخناهم فى المكان الذى فعلوا فيه المعصية. وقال يحيى بن سلام : هذا كله يوم القيامة. قرأ الجمهور : ﴿ **على مكانتهم**﴾ بالإفراد . وقرأ الحسن والسلمى وزرّ بن حبيش وأبو بكر عن عاصم: « مكاناتهم» بالجمع. وقرأ الجمهور : ﴿ **مضيا** ﴾ بضم الميم ، وقرأ حيوة : « مضيا » بفتحها ، وروى عنه أنه قرأ بكسرها ورويت هذه القراءة عن الكسائى . وقيل المعنى : ولا يستطيعون رجوعا . فوضع الفعل موضع المصدر لمراعاة الفاصلة، يقال : مضى يمضى مضيا : إذا ذهب فى الأرض، ورجع يرجع رجوعا: إذا عاد من حيث جاء .

﴿ **ومن نعمره ننكسه فى الخلق** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **ننكسه** ﴾ بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف مخففة. وقرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشدّدة . والمعنى : من نطل عمره نغير خلقه ، ونجعله على عكس ما كان عليه أولا من القوّة والطراوة . قال الزجاج : المعنى من أطلنا عمره نكسنا خلقه ، فصار بدل القوّة الضعف ، وبدل الشباب الهرم ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ [الحج : ٥]، وقوله: ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين : ٥]. ومعنى : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أفلا تعلمون بعقولكم أن من قدر على ذلك قدر على البعث والنشور . قرأ الجمهور: « يعقلون » بالتحتية . وقرأ نافع وابن ذكوان بالفوقية على الخطاب .

ولما قال كفار مكة : إن القرآن شعر ، وإن محمدا شاعر ، ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ **وما علمناه الشعر** ﴾ والمعنى : نفى كون القرآن شعرا ، ثم نفى أن يكون النبىّ شاعرًا ، فقال: ﴿ **وما ينبغى له** ﴾ أى لا يصح له الشعر ولا يتأتى منه ، ولا يسهل عليه لو طلبه وأراد أن يقوله ، بل كان ﷺ إذا أراد أن ينشد بيتا قد قاله شاعر متمثلا به كسر وزنه ، فإنه لما أنشد بيت طرفة بن العبد المشهور ، وهو قوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

قال : ويأتيك من لم تزوّده بالأخبار ، وأنشد مرّة أخرى قول العباس بن مرداس السلمى :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

فقال : بين الأقرع وعيينة ، وأنشد أيضا :

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا

فقال أبو بكر : يارسول الله ، إنما قال الشاعر :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا .

فقال : أشهد أنك رسول الله، يقول الله عزّ وجلّ ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغى له** ﴾ وقد وقع منه ﷺ كثير من مثل هذا . قال الخليل : كان الشعر أحبّ إلى رسول ﷺ من كثير من الكلام، ولكن لا يتأتى منه . انتهى . ووجه عدم تعليمه الشعر وعدم قدرته عليه: التكميل للحجة والدحض للشبهة ، كما جعله الله أميا لا يقرأ ولا يكتب، وأما ما روى عنه من قوله ﷺ :

هل أنت إلا أصبع دميت ... وفى سبيل الله ما لقيت (١)

وقوله :

أنا النبىّ لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب (٢)

ونحو ذلك ، فمن الاتفاق الوارد من غير قصد كما يأتى فى بعض آيات القرآن ، وليس بشعر ولا مراد به الشعر ، بل اتفق ذلك اتفاقا كما يقع فى كثير من كلام الناس ، فإنهم قد يتكلمون بما لو اعتبره لكان على وزن الشعر ولا يعدّونه شعرا، وذلك كقوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، وقوله : ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ [سبأ : ١٣] على أنه قد قال الأخفش إن قوله : « أنا النبىّ لا كذب » ليس بشعر، وقال الخليل فى كتاب العين : إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعرا . قال ابن العربى: والأظهر من حاله أنه قال : لا كذبُ برفع الباء من كذب . وبخفضها من عبد المطلب . قال النحاس : قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب ، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا : لأنه إذا فتح الباء من الأوّل أو ضمهما أو نوّنها وكسر الباء من الثانى خرج عن وزن الشعر . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **له** ﴾ عائد إلى القرآن أى وما ينبغى للقرآن أن يكون شعرا ﴿ **إن هو إلا ذكر** ﴾ أى ما القرآن إلا ذكر من الأذكار وموعظة من المواعظ ﴿ **وقرآن مبين** ﴾ أى كتاب من كتب الله السماوية مشتمل على الأحكام الشرعية . ﴿ **لينذر من كان حيا** ﴾ أى لينذر القرآن من كان حيا ، أى قلبه صحيح يقبل الحق ويأبى الباطل ، أو لينذر الرسول من كان حيا . قرأ الجمهور بالياء التحتية . وقرأ نافع وابن عامر بالفوقية ، فعلى القراءة الأولى المراد : القرآن ، وعلى الثانية المراد: النبىّ ﷺ . ﴿ **ويحق القول على الكافرين** ﴾ أى وتجب كلمة العذاب على المصرّين على الكفر الممتنعين من الإيمان بالله وبرسله .

---

(١) أحمد ٤/ ٣١٢ والبخارى فى الجهاد (٢٨٠٢) ومسلم (١٧٩٦ / ١١٢) .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٣١٧) .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ في شغل فاكهون ﴾ قال : في افتضاض الأبكار . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود في الآية قال : شغلهم : افتضاض العذارى . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وقتادة مثله . وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن عمر قال : إن المؤمن كلما أراد زوجة وجدها عذراء. وقد روى نحوه مرفوعا عن أبي سعيد مرفوعا عند الطبراني في الصغير ، وأبي الشيخ في العظمة. وروى أيضا نحوه عن أبي هريرة مرفوعا عند الضياء المقدسي في صفة الجنة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **في شغل فاكهون** ﴾ قال : ضرب الأوتار . قال أبو حاتم : هذا لعله خطأ من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : ﴿ **فاكهون** ﴾ : فرحون. وأخرج ابن ماجة ، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، والبزار وابن أبي حاتم ، والآجرّي في الرؤية ، وابن مردويه عن جابر قال : قال النبيّ ﷺ : « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وذلك قول الله : ﴿ **سلام قولا من ربّ رحيم** ﴾ قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم » (١) . قال ابن كثير : في إسناده نظر (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : إن الله هو يسلم عليهم .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي والبزار، وابن أبي الدنيا في التوبة واللفظ له، وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس في قوله : ﴿ **اليوم نختم على أفواههم** ﴾ قال : كنا عند النبيّ ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، قال : « أتدرون مما ضحكت ؟ » قلنا : لا يا رسول الله ، قال : « من مخاطبة العبد ربه يقول : يارِبّ ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : إني لا أجيز عليّ إلا شاهدا مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا فيختم على فيه . ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدا لكنّ وسحقا فعنكن كنت أناضل » (٣) . وأخرج مسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ : « يلقى العبد ربه فيقول الله : قل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترتع ؟ فيقول : بلى أي رب فيقول : أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول لا، فيقول : إني أنساك كما نسيتني .

(١) ابن ماجة في المقدمة (١٨٤) وفي الزوائد : « فيه عبد الله بن عبيد الله أبو عاصم العباداني منكر الحديث، والفضل كاد أن يغلب على حديثه الوهم » .

(٢) ابن كثير ٥/ ٦٢٠ .

(٣) مسلم في الزهد (٢٩٦٩/ ١٧) والبيهقي في الأسماء والصفات ١/ ٣٤٦ .

ثم يلقى الثانى فيقول مثل ذلك ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدّقت ويثنى بخير ما استطاع، فيقول : ألا نبعث شاهدنا عليك ، فيفكر فى نفسه من الذى يشهد علىّ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقى فتنطق فخذه وفمه وعظامه بعمله ما كان وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذى يسخط عليه»[١]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث أبى موسى نحوه [٢] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم** ﴾ قال : أعميناهم وأضللناهم عن الهدى ﴿**فأنى يبصرون** ﴾ فكيف يهتدون ؟ وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولو نشاء لمسخناهم** ﴾ قال : أهلكناهم ﴿ **على مكانتهم** ﴾ قال: فى مساكنهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم قال: بلغنى أنه قيل لعائشة : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس فيجعل أوّله آخره يقول: « ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار »، فقال أبو بكر: ليس هكذا، فقال رسول الله ﷺ : « إنى والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى » [٣] وهذا يردّ ما نقلناه عن الخليل سابقا أن الشعر كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة :

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد [٤]

وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن أبى عباس قال : كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار :

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد [٥]

وأخرج البيهقى فى سننه عن عائشة قالت : ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتا واحدا :

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما ... يقال لشىء : كان ، إلا تحقق

قالت عائشة : ولم يقل تحققا لئلا يعربه فيصير شعرا [٦] ، وإسناده هكذا : قال : أخبرنا أبو عبيد الله الحافظ : يعنى الحاكم حدّثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم حدّثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوى الضرير حدّثنا على بن عمرو الأنصارى حدّثنا سفيان بن عيينة عن

---

(١) مسلم فى الزهد (٢٩٦٨ / ٤٦) وأبو داود فى السنة (٤٧٣٠) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٣٤٥ .
(٢) ابن جرير ٢٣/ ١٧ .
(٣) ابن جرير ٢٣/ ١٩ .
(٤) أحمد ٦/ ٣١ .
(٥) ابن أبى شيبة فى الأدب (٦٠٦٥) .
(٦) البيهقى ٧/ ٤٣ وقال : « فى إسناده مجهولون ».

الزهرى عن عروة عن عائشة فذكره . وقد سئل المزّى عن هذا الحديث فقال : هو منكر ولم يعرف شيخ الحاكم ولا الضرير .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ .

ثم ذكر سبحانه قدرته العظيمة ، وإنعامه على عبيده وجحد الكفار لنعمه فقال : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما** ﴾ والهمزة للإنكار والتعجيب من حالهم ، والواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره ، والرؤية هى القلبية، أى أو لم يعلموا بالتفكر والاعتبار ﴿ **أنا خلقنا لهم** ﴾ أى لأجلهم ﴿**مما عملت أيدينا**﴾ أى مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا شركة، وإسناد العمل إلى الأيدى مبالغة فى الاختصاص والتفرّد بالخلق كما يقول الواحد منا : عملته بيدى للدلالة على تفرّده بعمله، « وما » بمعنى: الذى ، وحذف العائد لطول الصلة ، ويجوز أن تكون مصدرية ، والأنعام : جمع نعم وهى البقر والغنم والإبل ، وقد سبق تحقيق الكلام فيها . ثم ذكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام فقال: ﴿ **فهم لها مالكون** ﴾أى ضابطون قاهرون يتصرفون بها كيف شاؤوا ، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم ولم يقدروا على ضبطها، ويجوز أن يكون المراد: أنها صارت فى أملاكهم ومعدودة من جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة الملك .

﴿ **وذللناها لهم** ﴾ أى جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع مما يريدون منها من منافعهم حتى الذبح ، ويقودها الصبىّ فتنقاد له ويزجرها فتنزجر ، والفاء فى قوله : ﴿ **فمنها ركوبهم** ﴾ لتفريع أحكام التذليل عليه، أى فمنها مركوبهم الذى يركبونه كما يقال ناقة حلوب، أى محلوبة. قرأ الجمهور : ﴿ **ركوبهم** ﴾ بفتح الراء . وقرأ الأعمش والحسن وابن السميقع بضم الراء على المصدر. وقرأ أبىّ وعائشة : « ركوبتهم » والركوب والركوبة واحد ، مثل الحلوب والحلوبة والحمول والحمولة . وقال أبو عبيدة : الركوبة تكون للواحدة والجماعة ، والركوب لا يكون إلا

للجماعة . وزعم أبو حاتم أنه لا يجوز فمنها ركوبهم بضم الراء ؛ لأنه مصدر ، والركوب ما يركب، وأجاز ذلك الفراء كما يقال: فمنها أكلهم ومنها شربهم ، ومعنى ﴿ **ومنها يأكلون** ﴾: ما يأكلونه من لحمها ، و « من » للتبعيض ﴿ **ولهم فيها منافع** ﴾ أى لهم فى الأنعام منافع غير الركوب لها والأكل منها وهى ما ينتفعون به من أصوافها وأوبارها وأشعارها وما يتخذونه من الأدهان من شحومها ، وكذلك الحمل عليها والحراثة بها ﴿**ومشارب**﴾ أى ولهم فيها مشارب مما يحصل من ألبانها ﴿ **أفلا يشكرون** ﴾ الله على هذه النعم ويوحدونه ويخصونه بالعبادة ؟

ثم ذكر سبحانه جهلهم واغترارهم ووضعهم كفران النعم مكان شكرها فقال : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة**﴾ من الأصنام ونحوها يعبدونها ولا قدرة لها على شىء ولم يحصل لهم منها فائدة ، ولا عاد عليهم من عبادتها عائدة ﴿ **لعلهم ينصرون** ﴾ أى رجاء أن ينصروا من جهتهم إن نزل بهم عذاب أو دهمهم أمر من الأمور . وجملة : ﴿ **لا يستطيعون نصرهم** ﴾ مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها وأملوه من نفعها ، وجمعهم بالواو والنون جمع العقلاء، بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون ويضرون ويعقلون ﴿ **وهم لهم جند محضرون** ﴾ أى والكفار جند للأصنام محضرون، أى يحضرونهم فى الدنيا. قال الحسن : يمنعون منهم ويدفعون عنهم ، وقال قتادة : أى يغضبون لهم فى الدنيا . قال الزجاج : ينتصرون للأصنام وهى لا تستطيع نصرهم . وقيل : المعنى : يعبدون الآلهة ويقومون بها فهم لهم بمنزلة الجند . هذه الأقوال على جعل ضمير « هم » للمشركين وضمير « لهم » للآلهة . وقيل: ﴿ **وهم** ﴾ أى الآلهة ﴿ **لهم** ﴾ أى للمشركين ﴿**جند محضرون** ﴾ معهم فى النار فلا يدفع بعضهم عن بعض . وقيل : معناه : وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم فى جهنم لأنهم يلعنونهم ويتبرؤون منهم . وقيل: المعنى: إن الكفار يعتقدون أن الأصنام جند لهم يحضرون يوم القيامة لإعانتهم.

ثم سلى سبحانه نبيه ﷺ فقال : ﴿ **فلا يحزنك قولهم** ﴾ هذا القول هو ما يفيده قوله : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة** ﴾ فإنهم لابدّ أن يقولوا : هؤلاء آلهتنا وإنها شركاء لله فى المعبودية ونحو ذلك ، وهو نهى للرسول ﷺ عن التأثر بذلك . وقيل : إنه نهى لهم عن الأسباب التى تحزن رسول الله ﷺ ، وإن النهى لرسول الله ﷺ عن التأثر لما يصدر منهم هو من باب : «لا أرينك هاهنا » فإنه يراد به :نهى من خاطبه عن الحضور لديه . لا نهى نفسه عن الرؤية ، وهذا بعيد ، والأوّل أولى ، والكلام من باب التسلية كما ذكرنا . ويجوز أن يكون المراد بالقول المذكور : هو قولهم : إنه ساحر وشاعر ومجنون ، وجملة : ﴿ **إنا نعلم ما يسرّون وما يعلنون**﴾ لتعليل ما تقدّم من النهى. فإن علمه سبحانه بما يظهرون ويضمرون مستلزم للمجازاة لهم بذلك ، وأن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافيا أو باديا سرّا أو جهرا مظهرا أو مضمرا ، وتقديم السرّ على الجهر للمبالغة فى شمول علمه لجميع المعلومات .

وجملة : ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة** ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجيب من جهله ، فإن مشاهدة خلقهم فى أنفسهم ، على هذه الصفة من البداية إلى النهاية ، مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام وردّها كما كانت ، والإنسان المذكور فى الآية المراد به : جنس الإنسان كما فى قوله : ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ [مريم : ٦٧] ولا وجه لتخصيصه بإنسان معين كما قيل : إنه عبد الله بن أبىّ ، وأنه قيل له ذلك لما أنكر البعث ، وقال الحسن : هو أمية بن خلف . وقال سعيد بن جبير : هو العاص بن وائل السهمى ، وقال قتادة ومجاهد : هو أبىّ بن خلف الجمحى . فإن أحد هؤلاء وإن كان سببا للنزول فمعنى الآية خطاب الإنسان من حيث هو ، لا إنسان معين ، ويدخل من كان سببا للنزول تحت جنس الإنسان دخولا أوّليا . والنطفة : هى اليسير من الماء ، وقد تقدّم تحقيق معناها ﴿ **فإذا هو خصيم مبين** ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة المنفية قبلها داخلة معها فى حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام . و « إذا » هى الفجائية ، أى ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء ، ففجأ خصومتنا فى أمر قد قامت فيه عليه حجج الله وبراهينه . والخصيم : الشديد الخصومة الكثير الجدال ، ومعنى المبين : المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه . وهكذا جملة : ﴿ **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه** ﴾ معطوفة على الجملة المنفية داخلة فى حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام ، فهى تكميل للتعجيب من حال الإنسان وبيان جهله بالحقائق ، وإهماله فى نفسه فضلا عن التفكر فى سائر مخلوقات الله ، ويجوز أن تكون جملة : ﴿ **فإذا هو خصيم** ﴾ معطوفة على خلقنا ، وهذه معطوفة عليها ، أى أورد فى شأننا قصة غريبة كالمثل وهى إنكاره أحيانا للعظام ، ونسى خلقه ، أى خلقنا إياه ، وهذه الجملة معطوفة على ضرب . أو فى محلّ نصب على الحال بتقدير قد .

وجملة : ﴿ **قال من يحيى العظام وهى رميم** ﴾ استئناف جوابا عن سؤال مقدّر كأنه قيل : ما هذا المثل الذى ضربه ؟ فقيل : قال : من يحيى العظام وهى رميم ، وهذا الاستفهام للإنكار لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد ، فأنكر أن الله يحيى العظام البالية حيث لم يكن ذلك فى مقدور البشر . يقال : رمّ العظم يرم رما إذا بلى فهو رميم ورمام وإنما قال : ﴿ **رميم** ﴾ ولم يقل : « رميمة » مع كونه خبرا للمونث ؛ لأنه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرمة والرفات . وقيل : لكونه معدولا عن فاعله وكل معدول عن وجهه يكون مصروفا عن إعرابه كما فى قوله : ﴿ وما كانت أمك بغيا ﴾ [مريم : ٢٨] ؛ لأنه مصروف عن باغية ، كذا قال البغوى والقرطبى وقال بالأول صاحب الكشاف والأولى أن يقال : إنه فعيل بمعنى فاعل أومفعول وهو يستوى فيه المذكر والمؤنث كما قيل فى جريح وصبور .

ثم أجاب سبحانه عن الضارب لهذا المثل فقال : ﴿ **قل يحيها الذى أنشأها أوّل مرّة** ﴾ أى ابتدأها وخلقها أوّل مرة من غير شىء ، ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية

﴿**وهو بكل شيء عليم** ﴾ لا يخفى عليه خافية ولا يخرج عن علمه خارج كائنا ما كان . وقد استدل أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعى بهذه الآية على أن العظام مما تحله الحياة ، وقال الشافعى : لا تحله الحياة ، وأن المراد بقوله : ﴿ **من يحيى العظام** ﴾ : من يحيى أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف. وردّ بأن هذا التقدير خلاف الظاهر . ﴿ **الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا** ﴾ هذا رجوع منه سبحانه إلى تقدير ما تقدّم من دفع استبعادهم ، فنبه سبحانه على وحدانيته ودل على قدرته على إحياء الموات ، بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندى الرطب ، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران . وقيل : المرخ : هو الذكر ، والعفار: هو الأنثى ، ويسمى الأوّل : الزند والثانى : الزندة ، وقال ﴿ **الأخضر** ﴾ ولم يقل : « الخضراء » اعتبارا باللفظ . وقرئ : « الخضر » اعتبارًا بالمعنى ، وقد تقرّر أنه يجوز تذكير اسم الجنس وتأنيثه كما فى قوله : ﴿ نخل منقعر ﴾ [القمر : ٢٠] ، وقوله : ﴿ نخل خاوية ﴾ [الحاقة: ٧] فبنو تميم ونجد يذكّرونه، وأهل الحجاز يؤنثونه إلا نادرا، والموصول بدل من الموصول الأول ﴿**فإذا أنتم منه توقدون**﴾ أى تقدحون منه النار وتوقدونها من ذلك الشجر الأخضر.

ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم خلقا من الإنسان فقال : ﴿ **أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ والهمزة للإنكار . والواو للعطف على مقدّر كنظائره ، ومعنى الآية : أن من قدر على خلق السموات والأرض ـ وهما فى غاية العظم وكبر الأجزاء ـ يقدر على إعادة خلق البشر الذى هو صغير الشكل ضعيف القوّة . كما قال سبحانه : ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ [غافر : ٥٧] قرأ الجمهور: ﴿ **بقادر** ﴾ بصيغة اسم الفاعل . وقرأ الجحدرى وابن أبى إسحاق والأعرج وسلام بن المنذر وأبو يعقوب الحضرمى : «يقدر» بصيغة الفعل المضارع . ثم أجاب سبحانه عما أفاده الاستفهام من الإنكار التقريرىّ بقوله: ﴿ **بلى وهو الخلاق العليم** ﴾ أى بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ فى الخلق والعلم على أكمل وجه وأتمه . وقرأ الحسن والجحدرى ومالك بن دينار : « وهو الخالق » .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته وتيسر المبدأ والإعادة عليه فقال : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾ أى إنما شأنه سبحانه إذا تعلقت إرادته بشىء من الأشياء أن يقول له : احدث فيحدث ، من غير توقف على شىء آخر أصلا ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة النحل وفى البقرة . قرأ الجمهور : ﴿ **فيكون** ﴾ بالرفع على الاستئناف . وقرأ الكسائى بالنصب عطفا على ﴿ **يقول** ﴾ . ثم نزّه سبحانه نفسه عن أن يوصف بغير القدرة فقال : ﴿**فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء** ﴾ والملكوت فى كلام العرب لفظ مبالغة فى الملك كالجبروت والرحموت كأنه قال : فسبحان الذى بيده مالكية الأشياء الكلية . قال قتادة : ملكوت كلّ شىء : مفاتح كلّ شىء . قرأ الجمهور : ﴿ **ملكوت** ﴾ وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرف وإبراهيم التيمى : « ملكة » بزنة شجرة ، وقرئ : « مملكة » بزنة مفعلة ، وقرئ : « ملك ».

والملكوت أبلغ من الجميع . وقرأ الجمهور : ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ بالفوقية على الخطاب مبنيا للمفعول . وقرأ السلمى وزر بن حبيش وأصحاب ابن مسعود بالتحتية على الغيبة مبنيا للمفعول أيضا . وقرأ زيد بن علىّ على البناء للفاعل ، أى ترجعون **إليه** لا إلى غيره ، وذلك فى الدار الآخرة بعد البعث .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر ،وابن أبى حاتم فى معجمه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بيده فقال : يامحمد ، أيحيى الله هذا بعد ما أرم ؟ (١) قال : « نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم » فنزلت الآيات من آخر يس: ﴿**أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة**﴾ إلى آخر السورة(٢). وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال جاء عبد الله بن أبىّ فى يده عظم حائل إلى النبىّ ﷺ . . . وذكر مثل ما تقدّم (٣) . قال ابن كثير : وهذا منكر ؛ لأن السورة مكية وعبد الله بن أبى إنما كان بالمدينة (٤) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : جاء أبىّ بن خلف الجمحى وذكر نحو ما تقدّم . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : نزلت فى أبى جهل وذكر نحو ما تقدّم .

---

(١) فى المخطوطة : « أرى » والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج .

(٢) ابن جرير ٢١/٢٣ وصححه الحاكم ٤٢٩/٢ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

(٣) ابن جرير ٢١/٢٣ .

(٤) ابن كثير ٦٣٢/٥ .